الجهــــاد

جمال البنا

كان الجهاد كبركـان خامد لم يتحـرك لعـدة قـــرون حـــتى اعتقد النـــاس أنه فقد تفاعلاته الداخلية فعاشوا فى سفحه آمنين[1].

وفى أربعينات القـرن الماضى كتب الإمـام الشهيد حسن البنا رسـالة الجهـاد الـتى أعـاد بها إلى الإسلام قسـمته الجهاديـة. وأثبت أن الجهـاد فريضة ماضـــية إلى يـــوم القيامة – ولكنه أدخر دوره لمقاومة الاســـــتعمار ثم وضع النقط على الحــروف، عنــدما كــوّن "المتطــوعين" الــذين سافروا إلى فلسـطين وقـاموا بـأول المجابهـات مع الإسرائيليين.

وقام هـؤلاء المتطوعـون أنفسـهم بـدورهم فى حـــــرب المعســــكرات البريطانية بمنطقة القنال سنة 1951 وقدموا شهداءهم.

---

1 **(1) لا ينفى هذا أن بعض فئات المسلمين فى الهند تنبهوا إلى أهمية الجهاد كما فى حركة الإمام أحمد السرهندى والذين اتبعوه مثل الشهيد إسماعيل بن الإمام ولى الله الدهلوى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الهجرة.**

وكـــانت رســالة الجهـــاد قائمة على آيـــات قرآنية معــــززة بأحـــاديث ربما فـــاقت الآيـــات ومشفوعة ببعض آراء الفقهاء.

وأدت تطــورات عديــدة لأن يبــدأ فريق من الـــدعاة، من حيث أنتهى إليه الإمـــام البنا وأن لا يقنعـــوا بجعل الجهـــاد فريضـــة، ولكنهم جعلـــوه **"الفريضــة"** ومـــدوا فى اختصاصه – وهـــذا هو التطـــــور الجديد – إلى أن يكـــــون أداة لنشر الإسلام وإنقاذ الدول الأوربية من "جاهلية القرن العشرين" وعبادة الأفراد إلى عبـــادة الله الواحد القهار.

وأدى بهم هـــذا الاجتهـــــاد الســـقيم لأن "يجاهـدوا" الدولة الـتى فى نظـرهم لا تحكم بما أنزل الله. ومن هنا فإنها أولى وأحق وأقرب من جهاد النظم الأخرى البعيدة.

وانزلقوا مرة أخرى بهـذا الجهـاد المزعـوم إلى محاولة اغتيـــال المســئولين بما فيهم رئيس الدولة وقتل أقبـــاط أو جنـــود وضـــباط وســـرقة محال الصاغة حتى ماثل أعمال العصابات.

ونتجت عن ذلك نتائج مأساوية عكرت صفو الأمـــة، وأنشـــأت عـــداوة جديـــدة بين الدولة والتيـــارات الإســـلامية وأدت إلى ســـجن وقتل مجموعة من الشباب الذين قاموا بهذه الأعمـــال وهـــرب بعضـــهم إلى الخـــارج. بينما قتل أبريـــاء وسياح وتلوثت سمعة البلاد.

وهكذا أخذ الجهاد شكلاً آخر غير ما يصوره الإسلام بل يمكن غير ما تصوره أصحابه أنفسهم

الـذين أودت بهم انزلاقـاتهم – انزلاقا إثر انـزلاق إلى هذه النتائج المأساوية.

* * *

والرسالة التى بين يدى القـارئ تختلف عن كافة الكتابـات والتصـورات عن الجهـاد.. وهى تـرى أن الجهـاد كـان فى الماضى والحاضر من أكـبر الموضـوعات الـتى أسئ فهمهـا، وان هـذا أفسح المجال فى العصر الحـديث لأن يُظلم من نقدة الشـريعة ومن سـدنة الشـريعة، وأن يظلم فى الــداخل ويظلم فى الخــارج وأســاء تناوله والتعامل معه المستشــــرقون والجماعـــــات الإسلامية. وأن استهدف الأولـون الكيد للإسـلام واستهدف الآخرون الانتصار للإسلام.

وجـاء هـذا الخطأ فى الفهم بالدرجة الأولى نتيجة للخلط بين "الجهـــــــاد" و "القتال" واعتبارهما موضوعاً واحداً، بل وتغليب القتـــال على الجهـــاد ومعالجة الجهاد باعتباره قتالاً..

وهـذا خطأ جسـيم. فالجهـاد مصـطلح من أصل واشـتقاق لغـوى يـدل على مضـمون معين ويكون له بالتالى الوسائل والأهـداف الـتى يـدل عليها أو يؤدى إليها مضـمونه. والقتـال مصـطلح من أصل واشــتقاق لغــوى يــدل على مضــمون معين يختلف عن الأصل اللغـــوى لكلمة جهـــاد، وكذلك له وسائل وغايات مختلفة.

وقد وجد الجهاد دون قتال. كما وجد مع القتال وكان لكل واحد منهما أسلوبه وغايته المختلفة – وفيما نـــرى فـــإن الجهاد – بالصورة التى سنعرضها – يكون

هو الأصل الدائم أما القتال فطارئ يلزم اللواذ به عندما تتطلب الضرورات ذلك.

ومن الناحية التاريخية والواقعيـــة، فقد ظل الرسول وصحابته يجاهدون فى مكة طوال ثلاث عشرة سـنة ويسـتخدمون وسـائل الجهـاد الـتى سنعرضها فيما سـيلى، والـتى تضـمنت "الحكمة والموعظة الحسـنة والصـبر والثبـات، والهجـرة إلى الحبشة الخ... وكانت الثمـرة العظمى لهـذا الجهاد فتح المدينة الذى تم بـالقرآن. كما قـالت عائشة "**فتحت المدينة بـالقرآن**" فقد فتحها القارئ مصعب بن عمـير بفضل قراءته القـرآن. وعلى أساس هذا الفتح الـذى لم يحـدث بسـيف أو سنان أو حرب أو قتال، جاءت كل الفتوح، بما فيها مكة الــتى اعتــبرت تكليلاً لمرحلة القتــال التى بدأت منذ الهجرة.

لدينا إذن، أسلوبان استخدماً لرفع الإســلام ونشــره وترســيخ دعائمه هما الجهــاد والقتــال وتطلبت طبـائع الأمـور والأسس العامة لظهـور الــدعوات. أن يظهر هــذان الأســلوبان كل فى المرحلة الــتى ظهر فيهــا، فظهر الجهــاد أولاً. واســـتغرق المرحلة الأول من تـــاريخ الـــدعوة النبوية وتم فيها ترسيخ العقيـدة والإيمـان بقيمها وكـان اضـطهاد المشـركين للمؤمـنين نعمة فى شكل نقمة لأنه ميز المؤمـنين وعلمهم الصـمود وأذهب من نفوسهم نوازع السلبية والاسـتخذاء. باختصـــار كـــان مدرسة تـــربى الـــدعاة وتنشئ المؤمنين.

وعنــدما هــاجر المســلمون إلى المدينــة، وأصـــــبحوا فى وضع يمكنهم من الانتصـــــاف ويعطيهم الأداة الـتى يحمـون بها العقيـدة. بـدأ

القتـــال وكـــان فى حقيقته دفاعـــاً عن النفس ودفاعاً عن العقيدة. وهـذا هو سر كلمة "لكى لا تكون فتنة" التى تكررت فى آيات القتال.

واســـتعراض المرحلـــتين يوضح أن مرحلة الجهـــاد هى المرحلة الدائمة والمســـتمرة وأن المرحلة الثانية – القتـــــال – ليست إلا مرحلة تكميلية لتأمين حرية العقيدة ولصد الهجوم على المؤمـنين. فـإذا انتفى هـذان، فلا يكـون هنـاك حاجة لقتـال فى حين يكـون هنـاك حاجة دائمة ومســتمرة إلى جهــاد، كما أن هــذا لا ينفى أن يكـون المجتمع مسـتعداً للقتـال عنـدما تتطلب الظـروف. وانتفـاء القتـال لا يعـنى الـدخول فى مرحلة "الاســترخاء" ولكنه فى الحقيقة انتقـــال من جهـاد إلى جهـاد. من جهـاد أصـغر إلى جهـاد أكبر.

نعم، قام المسلمون بالفتوحات الكبيرة بعد أن تحقق لهم الأمن ولم يعد هنـــاك حاجة لصد هجوم أو دفع فتنـة، وارتـؤى أن هـذه الفتوحـات كانت العامل الأكبر فى نشر الإسلام، ولكن هـذا فصل من التاريخ الإسلامى وليس من المضمون الإسـلامى للعقيـدة أو الشـريعة. وعنـدما يـوزن بمـوازين التـاريخ فستتضح المزايا الـتى تمـيزه، كما سيظهر القصور الذى لحقه..

* * *

لنعدد مرة أخرى إلى اللبس الـذى وقع فيه نقدة الشـريعة وسـدنتها ما بين الجهـاد والقتـال فكيف حدث هذا اللبس وما الدواعى إليه.

1. إن السـبب الأكـبر هو أن الـذين بحثـوا فى هذا الموضوع "اقتنصـوا" آية أو عـدداً من

الآيـــات، عزلوها عن ســـياقها، وجردوها من ملابساتها. وحكمـوا بهـا. ومثل هـذا الموضـوع الخطــير لا يمكن أن يعــالج بــالنظر إلى بضع آيــات، لأن دراسة موضــوع ما فى القــرآن لا يســتوفى إلا بدراسة كل ما جــاء فى القــرآن عنه، لأنه يتحدث عنه فى سورة بما لا يتحـدث عنه فى سورة أخرى ومن ثم فمن الضــرورى استحضار واستصحاب كل الآيات الـتى جـاءت عن القتال أو الجهـاد والخـروج بـالحكم الـذى تؤدى إليه مقارنة الآيات بعضها ببعض.

2. كذلك من المحتمل أنهم أخذوا كلمـتى "الجهاد" و"القتال" كمترادفتين يعطيان معـنى واحداً أو متقارباً، ولم يشـغلوا أنفسـهم بدلالة التفرقة اللغوية. فاعتبروا أن التضحية بالنفس هى أعلاً مراحل الجهـاد، كالشـاعر الـذى رأى أن "الجود بالنفس أقصى غاية الجود".

3. كذلك قد يكون لهم عذر فى أن القتال فى الإســلام يختلف عن القتـــال للثـــأر، أو الغنيمــة، أو العصــبية أو غــير ذلك من مــآرب دنيويــة، وكلمة الجهـاد هى الـتى تضـفى عليه المضمون الإسلامى.

4. ويجب الإشـــارة إلى أن ســـوء الفهم الذى لحق بالجهاد والقتـال لا يقف عند اعتبـار الجهاد قتـالاً، ولكنه يشـمل أيضـاً مفهـوم هـذا القتال بما يجاوز الغرض منه وهو صد الهجــوم ودرأ الفتنة إلى نشر العقيدة ومحاولة "أسلمه العـالم" وإنقـاذه من الجاهلية الحديثة وتعريفه بالحاكمية الإلهيـــة. وهو تطـــور خطر يفتح بابا للمســـاس بحرية العقيــدة لإطــراف أخــرى،

ويلقى بنا فى الأبعـاد السـحيقة لما يصل إليه التطرف، والأمواج المتلاطمة التى تكتنفه.

5. كـذلك مما يجعل هـذا اللبس مفهومـاً أن كثيراً من الأحـاديث النبوية جـاءت بطريقة تحتملـه، وأنها أعلت كفة القتـال فى كثـير من الحـالات ومعلـوم بـالطبع أن الاسـتناد على السُنة عـادة ما يكـون أكـثر من الاسـتناد على القرآن لوضوح الأحاديث وتفصيلها وأنها عـادة تكون استجابة لمطالب آنية.

6. على أن أهم من هـذا كله أن الفقهـاء على اختلافهم اعتبروا الجهـاد قتـالاً، وأصـدروا أحكامهم عليه باعتباره قتـالاً. وسـيجد القـارئ نموذجاً من أقوالهم فى الفصل السـادس. ولا جـدال أن هـذا قد عمق وأصَّـل معـنى الجهـاد كقتال.

ونحن لا نقول إن الإسلام لا يعترف بالقتـال ولا يلوذ به. فمن المقطـوع به أنه تقبله والآيـات والأحاديث صريحة وجازمة فى ذلـك، فضـلاً عن الوقـائع العملية وغـزوات الرسـول الخ... ولكننا نقـول إن القتـال ليس هو الـدأب العـادى، فكما قال شوقى.

وليس الحرب مركب كل يوم ولا الدم كل آونـة حلالاً

فالإسلام يتقبل القتال، بل يوجبه دفاعاً عن النفس وصـــداً للفتنة وقد ظهـــرت الأهمية الحاســمة لــذلك فى الســاعات التاريخية والمصيرية منذ أن بدأ الإسلام وأراد المشـركون اجهاضه فردوا بالقتال الـذى ظفر لهم بالانتصـار كما ظهـرت أهمية الجهـاد والقتـال سـنوات

مقاومة الاستعمار فى العصر الحديث. فقد كـان الجمهور الذى تصـدى لهـذه القـوى هو الجمهـور الإسلامى الذى كـان يحـارب تحت لـواء الجهـاد. وكانت عقيدة الجهاد الـتى تمكنت من الجمـاهير ووصــلت إلى أعمــاق نفســها هى القــوة الــتى جعلتها تصــمد أمــام بنــادق ومــدافع الجيــوش الاســـتعمارية، وحـــالت دون أن يتطـــرق إليها الضعف حتى عندما تنهزم فى معركة فإنها كانت تسـتأنف فى معركة أخـرى حـدث هـذا فى كل الدول الإسلامية التى تعرضت للاستعمار وأرادت التحرر منه. فتحت لواء السنوسية وعمر المختار حـاربت ليبيا وتحت لـواء عبد القـادر الجزائـرى حـــاربت الجزائـــر، وتحت لـــواء عبد الكـــريم الخطـابى حـاربت المغـرب وتحت لـواء المهـدى حـاربت السـودان، وتحت قيـادة شـيوخ الأزهر ثارت القاهرة على نـابليون ولكن هـذا كلـه، من بداية القتـــال فى عهد الرســـول حـــتى مقاومة الاستعمار كان دفاعاً عن النفس والعقيـدة، ولم يكن هجومـــاً على الآخـــرين أو محاولة لضم أرضـهم ومن المفارقة أن نقبل الحـرب دفاعــاً عن أنفســنا وعقيـدتنا ثم نقبل الحـرب هجومـاً على نفوس الآخرين وعقيدتهم، ونصوص القرآن الكـــريم واضـــحة فى هـــذا فكل ما يمت إلى العقيدة، فـإن الإكـراه مسـتبعد منـه. وعلى هـذا الأســاس تقبل أو تــرفض الفتــوح الإســلامية، ويكون الأساس الذى أوجبها هو العدالة والقضاء على النظم الطبقية الـتى اسـتعبدت الجمـاهير وفرضت عليهم الفاقة والجهالـة، وليس التبشـير بالإسلام.

وظهــرت الحاجة إلى روح الجهــاد عنــدما اســـتحوز الإســـرائيليون بـــدعم من الانتـــداب

البريطـــانى على فلســطين وعنـــدما انهـــزمت الجيوش الرسمية العربية فى المعركة لأن كبــار قياداتها كانوا من العملاء. بـرزت قـوة متطـوعى الإخوان المسلمين الذين حازوا وحدهم – تقريبـاً – الانتصار على اليهود فى معـارك 1948 وكـان شعارهم "الموت فى سبيل الله أسـمى أمانينـا" وآمنـــوا بما آمن به المســـلمون الأول من أنهم سيكسبون إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة

وبـــرزت مـــرة ثالثة الحاجة إلى الـــروح الجهادية بعد أن برزت فى معارك الاستقلال فى مسـتهل القـرن. وفى معـارك فلسـطين سـنة 1948 أخـــيراً في عـــام 2002 عنـــدما أعـــوز الفلســـطينيين الأســـلحة الحديثة من دبابـــات وصواريخ وطـائرات ليقـابلوا بها جحافل السـفاح شـارون. إذ وجـدوا فى العمليـات الاستشـهادية الحل الوحيد الـــذى يوقع الـــذعر فى الجيش الإســـرائيلى وفى المســـتوطنين القســـاة المتوحشـين. كـانت هـذه العمليـات هى الـرد الوحيد فى أيـدى الفلسـطينيين ووصـلت قـوة الرغبة فى الاستشـهاد درجة فـاقت ما وصـلت إليه عند الفلاحين المصريين الـذين تطوعـوا فى صـــفوف الإخـــوان وقبل الواحد منهم أن يـــبيع الجاموسة، وهى رأس ماله – ليشـترى بندقيـة.. إن هـذه الـروح وأقـوى منها تجلت فى الأمهـات الفلســـطينيات اللاتى قـــذفن بأبنـــائهن إلى العمليـــات الاستشـــهادية، ولم ينـــدبن أو يبكين عندما قتلوا ولكن احتفلـوا برضـاء الله وأنه تقبل تضحيتهن بأفلاذ أكبادهم فى سبيل الـوطن. ومن يقرأ حديث السيدة والدة الشـهيد محمـود العابد بجريـــــدة الشـــــرق الأوسط يـــــوم الجمعة

28/6/2002 يحس بصـــــــــدق وإخلاص الابن والأم[2]. وليست هى إلا واحـــــدة من عديد من الأمثــلة.

عندما يتحقق هذا فـإن القتـال يكـون أمـراً مستســاغاً أو جهــاداً نــبيلاً. ولكن كيــف..وإلى مــتى.. إن وســيلة الحــروب قد لا تكــون أمثل

---

2 **(1) نرى من حق هذا الشهيد باعتباره رمزاً للعديد من الشهداء أن نورد هنا ما جاء فى جريدة الشرق الأوسط على لسان إمه لنحفظ ذكراه فى التاريخ وليكون فيه أسوة للأجيال القادمة. "واستطردت: "عدنا فى المساء إلى البيت وسهر محمود معنا أنا وأخوته وإخوانه، وبعد ذلك ذهب للنوم وقبل أن ينام قلت له يا محمود إذا خرجت غدا لعمليتك لا تودعنى خوفا من أن ترجع على مرة أخرى فقال لى "مثل ما بدك ياما" فنام قرير العين مرتاح البال وفى الصباح جاءه اتصال من الجناح العسكرى لحركة "حماس" أو بالأحرى من يرصد للعملية، وقال إن الجنود مروا الآن من الطريق أسرع أنت مع المقاتلين لكى تلحقوا بهم عند الرجوع فقام محمود فعلا واستحم وصلى الصبح وخرج، وأنا عرفت أنه خرج لتنفيذ العملية فظل بالى مشغولاً عليه. بعد ذلك جاءنى أبنى الصغير وقال لى بأنه سمع بأن مجموعة من المقاتلين هاجمت جنوداً للاحتلال بالقرب من مستوطنة دوغيت فاستشهد منهم واحد والباقون لم يستشهدوا وحينها أصابنى القلق ولم أجعل هذا القلق والخوف يظهران على بل كنت أدعو له بأن يكون "مصيره الجنة. فى الساعة الثانية ليلاً جاءنى رفاقه وقالوا لنا "عظم الله أجركم" محمود استشهد**

الوســائل لتــدمير النظم الحاكمة الجــائرة، وإن كـــــانت أســــــرعها، لأنه يمكن أن تكــــــون لها انعكاسات سيئة، ويمكن لهـذه الآثـار السـيئة أن تكون أسوأ من السرعة والحسم التى هى مـيزة القتال، وعلى كل حال، فـإذا كـان القتـال يـؤدى هذه الرسـالة قـديماً، فإنها قد انتفت فى العصر الحديث.

والقرآن لا يطلق العنان لهذا الاتجاه. اتجـاه القضـاء على نظم مختلفـة، أو حـتى ضـالة لأنه يؤمن بالتعددية وبقاء الديانات الأخرى من يهـود، ومسيحيين وصابئين الخ... ولأن الله تعـالى يعلم أنه يوجد حتى فى المجتمع المسلم من لا يـؤمن الإيمان المطلوب. والآيات صـريحة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَـكُمْ لا يَضُـرُّكُمْ مَنْ ضَـلَّ إِذَا

فسألتهم هل استشهد أم أصيب فقالوا لا استشهد فحينها أطلقت زغرودة مدوية أفاق عليها سكان الحارة والجيران جميعهم وحمدت الله على نعمته التى منحها لمحمود".
وأضافت أم محمود "بعد ذلك سألت عن تفاصيل العملية فقالوا لنا أن الشهيد محمود كان فى الصف الأول فى المجموعة وطلب منهم الانسحاب، قائلاً أنا سوف أغطى عليكم فأخذ يلقى بالقنابل ويطلق الرصاص على الجنود حتى انسحب رفاقه جميعا وهو استشهد وبعدها فى الساعة الثالثة ليلاً بدأت المساجد تكبر وتقول بأن محمود العابد استشهد. فى الصباح جاءوا بمحمود كى ألقى النظرة الأخيرة عليه فودعته ورأيته مثل البدر وكأنه يشع نوراً فقبلته وقلت له هنيئاً لك الشهادة يا محمود.

اهْتَدَيْتُمْ﴾. {105 المائدة}.. ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَـزَّكَّى ﴾. {7 عبس}.. كما توضح الآيـــات أن من ضل فإنما يضل على نفسه ومن اهتـــــدى فلنفسه ومعنى هذا أن الهـدى والضـلال ليس من قضـايا النظـــام العـــام الـــذى تتـــدخل فيه الـــدول أو المؤسسـات، إنما هى قضـية فردية لأنها تقـوم على الضـمير ومن السـخف الظن أننا مطـالبون بأن ننقذ فرداً من نفسه بالقوة.

المطلــوب إذن قبل إصــدار الأحكــام على القتـال أن نحيط إحاطة شـاملة بكل ما جـاء فى القـــرآن الكـــريم عن الجهـــاد والقتـــال ليمكن اســـتخلاص الأحكـــام فى ضـــوء هـــذه الإحاطة الشـــاملة. مع النظر فى ما جـــاء بالمرويـــات الحديثية فى ضـــوء الملابســـات الآنية لها وبعد ضبطها بمعايير القرآن.

نقول إذا توفر هـذا وذاك فلن يكـون هنـاك إشكال وستتضح حقيقة الجهـاد ورافـده القتـال. ولكن الـــذى حـــدث أن عوامل عديـــدة متكاثفة أبعـــدت المضـــامين الجهاديـــة، وأحلت محلها مضـامين القتـال، وكـان ذلك من أكـبر أسـباب تخلف المجتمع الإســلامى. لأن الجهـــاد هو روح المجتمع وجمـاع الأخلاق الإسـلامية (كما سـيلى) وعندما يفقد، فـإن المجتمع يفقد روحه الحقيقية لأن الجهـــاد ينتظم الواجبـــات الـــتى يجب على المسـلم أن يقـوم بها بحيث يكـون عضـواً بنـاءً إيجابيـاً. فـإذا فقـدها فسد المجتمع من الـداخل، وخير مثال لذلك الدولة التركية التى قامت على قتال لا جهاد فيه.. ومن هنا لم تقم بدور حضارى وكان حكمها أسوء صور الحكم.

كما يمكن تقـــديم مثـــال آخر هو الـــدور السـلبى الـذى قـام به التصـوف فى المجتمع الإسلامى وتجريده من جهاديته وإحلال مجاهدات أخرى. والتصوف فى جوهره اتجـاه سـلبى يمثل الفـــــرار من مشــــاكل المجتمع والعجز عن مجابهتهـا، ولم يكن ثمة حل ســوى البحث عن عـالم بـديل يصـولون فيه ويجولـون وقد امتص التصوف الكتلة الجماهيرية للمجتمع الإسـلامى و "حيد" جهودها وانحرف بها من معارضة سياسية أو مساهمة اجتماعية أو إقامة اقتصاد قومى إلى شطحات وموالد "وحضرة" والتضرع إلى شـيوخ وأوليـاء وأقطـاب وأوتـاد والتمـاس شـفاعتهم أو "التماهى" فى العالم الأسـطورى الـذى أبـدعوه وظنوا أن الملوك لو علموا به لحسـدوهم عليـه! مساكين!.

إن الانتقـال من الجهـاد فى الـداخل إلى القتـال فى الخـارج كـان بداية تخلخل المجتمع الإسلامى، كما أن انتشار حركة التصـوف عقمت المجتمع الجهـاد الإسـلامى وأحلت محله جهـاداً مصطنعاً.

وبعد، فإننا لنرجو أن نكون بهـذا الكتـاب قد جاوزنا بـالفكر الإسـلامى فى جـانب من أهم جوانبه تلك المستنقعات التى ركد فيها، وأعـدناه إلى منبعه الأصيل المتدفق القرآن الكريم..

القاهرة: جمادى الأخرة 1423 هـ/أغسطس 2002 م.

الباب الأول
الجهـاد
الفصل الأول
الطبيعة الجهادية للإسلام

لم يكن عبثا أن اصـطنع القـرآن الكـريم تعبير الجهاد بالـذات وخصه بالـذكر وجعله طـابع الحيـاة، ذلك لأن كلمة الجهـاد تركز فى كلمة واحـدة **"بذل الجهـد"** وهى لا تقيد هـذا البـذل الأقصى فى مجال دون مجال، وإنما يفـترض أن يكـون خطة ومنهاجـاً وأسـلوباً وسـلوكاً.. وهـذا المنهج هو ما يتفق مع الطبيعة الجهادية للإسلام.

الحياة مبارزة بين الخير والشر:

ومن أين جاءت هـذه الطبيعة ؟ لقد جـاءت – بالدرجة الأولى – من التصـور الرئيسى الـذى أقترن بظهور الحيـاة على هـذا الكـوكب الأرض. بل بسببه ظهرت الحيـاة وارتبطت بـه. وهـذا ما يشرحه لنا القرآن الكريم بتفصيل رائع، وإعجاز بالغ فى أكثر من سورة، وأكثر من مناسبة. ففى هذه المواضع تحدث القرآن الكريم عن آدم فى الجنة يعيش فيها رغـداً وكيف حـذره الله من أن يسـتمع لغواية الشـيطان، ولكن آدم فى إحـدى لحظات الضـعف أنخـدع بغواية الشـيطان الـذى أكد له أن الشـجرة الـتى أمـره الله أن لا يقربها هى شـجرة الخلد وأنه إن أكل منها فسـيرزق الخلود[3]. وأنخدع آدم. وحقت عليه كلمة الله أن

---

3 (1) لاحظ التفرقة الدقيقة والبعيدة المدى فى اعتبار القرآن الشجرة شجرة خلود

يـــترك الجنة وأن يـــنزل الأرض ليبـــدأ أجيـــال المعاناة.

ولكن الله تعالى فى سابق علمه كـان يريد لآدم شـــيئاً عظيمـــاً هو أن يكـــون خليفته على الأرض. وقد أهله لهـــذا بـــأمر مـــيزه على بقية الخلق جميعـاً هو العلم ومن أجل هـذا فلم يكن نـــزول آدم من الجنة إلى الأرض عقوبـــة، ولكنه كـان قضـاء وإرادة من الله تعـالى بإعمـار هـذه الأرض وأن يقـــوم فيها بكل الأعمـــال العظيمة الـتى أهله الله لها فضـلاً عن تلك النفثة الإلهية الـتى نفثها فيه وهو صلصـال مهين فـانقلب إلى مخلـوق كـريم يمكن أن يحمل رسـالة الله فى الأرض بعد أن زوده الله تعـــالى بالضـــمير من ناحية والعلم من ناحية أخرى.

ويقص القـــرآن هـذه القصة الـــتى رمز بها لدور الإنسان على الأرض ومكانته فيها.. وأجـرى لكى يقـــرب المضـــامين إلى إفهامنا حـــواراً بينه وبين الملائكة الذين هـالهم أن يجعل الله تعـالى خليفة له على الأرض هـــذا الإنســـان لكى يفسد فيها ويســفك الـــدماء. فـــرد الله عليهم بـــأنهم لا يعلمون ما يعلمه وسألهم

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِـلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَـةً قَـالُوا أَتَجْعَـلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِـدُ فِيهَا وَيَسْـفِكُ الـدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَـبِّحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَـكَ قَـالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُـونَ.﴾ {30}..

وفى اعتبار التوراة لها شجرة المعرفة.

- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ {31}﴾. ..
- ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {32}﴾.
- ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ {33}﴾. ..
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ {34}﴾. ..

(البقرة من 30 – 34)

وفى الآية الأخيرة يشير القرآن الكريم إلى رفض إبليس السجود مع الملائكة على أساس أنه أفضل من آدم، فقد خلقه الله من نار وخلق آدم من طين.

ورمز القرآن الكريم بالشيطان لقوة الشر، لأن دعواه قامت على الأثرة والأنانية مع الجهل بحكمة الله تعالى وكان جديراً به أن يفهم أنه ما دام الله تعالى أراد سجود الملائكة الذين هم من نور فإن له حكمة لا يفترض ضرورة أن يعرفها. وعندما تقترن الأنانية بالجهالة فإنها تكون أصل كل الشرور.

برفض إبليس السجود لأنه يرى نفسه أفضل من آدم ويجعل من نفسه العدو الأبدى للإنسان. وأراد الله تعالى له أن يمثل هذا الدور الذى أختاره لنفسه بحيث تكون الحياة مبارزة

ما بين الإنســان من ناحية والشــيطان من ناحية أخرى. وهو ما تفصله الآيات..

- ﴿وَلَقَـدْ خَلَقْنَـاكُمْ ثُمَّ صَـوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَـةِ اسْـجُدُوا لآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ{11} ﴾..
- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْـرٌ مِنْـهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَـارٍ وَخَلَقْتَـهُ مِنْ طِينٍ{12} ﴾..
- ﴿قَـالَ فَاهْبِـطْ مِنْهَا فَمَا يَكُـونُ لَـكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَـــاخْرُجْ إِنَّكَ مِنْ الصَّـــاغِرِينَ ﴾{13}..
- ﴿قَـــالَ أَنظِـــرْنِي إِلَى يَـــوْمِ يُبْعَثُـــونَ﴾{14}..
- ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنْ الْمُنظَرِينَ{15} ﴾..
- ﴿قَـــالَ فَبِمَا أَغْـــوَيْتَنِي لأَقْعُـــدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ{16} ﴾..
- ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـــانِهِمْ وَعَنْ شَـــمَائِلِهِمْ وَلا تَجِـــدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ{17} ﴾..
- ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَـذْءُومًا مَـدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَـــكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾{18}..

(الأعراف من 11 – 18)

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَـــةِ اسْـــجُدُوا لآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلا إِبْلِيـــسَ قَــالَ أَأَسْــجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا{61} ﴾..

- ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَـهُ إِلا قَلِيلاً {62}﴾. ..
- ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا{63}﴾. .
- ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَـوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْــوَالِ وَالأولادِ وَعِـــدْهُمْ وَمَا يَعِـــدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا{64}﴾.
- ﴿إِنَّ عِبَـادِي لَيْسَ لَـكَ عَلَيْهِمْ سُـلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً {65}﴾. ..

(الإسراء 61 – 65)

أننا لا نجد دينا أبـرز الشر ممثلاً بالشـيطان بمثل هذه الصورة من القوة والوضوح، ولا نـرى دينا يعطى الشـيطان "كـارت بلانش" ليقـوم بالغواية بكل ما يستطيع بل وكاد يكـون أمـراً له بهـذه الغواية ﴿وَاسْـتَفْزِزْ مَنْ اسْـتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِـكَ وَرَجِلِـكَ وَشَـارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأولادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا﴾[4].

---

4 (1) لقد ثار التسـاؤل عن مصـير الشـيطان فى اليـوم الآخـر، فهو فى فتنته للنـاس وإشـاعته المنكـرات إنما كـان يعمل برخصة من اللـه، وإن كـان بـالطبع قد أخطأ خطأ فاحشاً عنـدما رفض إطاعة الأمر بالسـجود، ولكنه ما كـان يمكن أن يعصى الله خارقـاً إطـار القـدرة الإلهيـة. ومع أن الحـديث عن

ولما طلب الشيطان أن يمهله طوال الحياة الدنيا، أمهله الله..

إن هـذا ينم عن الثقة الكبـيرة الـتى يضـعها القــرآن فى الإنســان المــزود بــالعلم والضــمير والمســلح بهداية الأنبيــاء والكتب المقدسة الـتى تضع للإنسان معالم الطريق وسبل الهداية.

هكذا يتهيأ مسرح الحياة ليكون جهاداً كأشد ما يكون الجهاد.. جهاداً ما بين نار حارقة.. ونــور هــادئ، جهــاداً بين غواية ســاحرة جاذبــة. وبين إيمان راسخ رصين. جهـاداً يسـتمر ما اسـتمرت الحياة ويضم مجالاتها وتكون أسـلحة الغواية فيه المــال والغــرور والنســاء والشــهوات والمراكز والمناصب والكبريــــاء وأســــلحة الهداية العلم والضـمير والخـير وهداية الأنبيـاء وتعـاليم الكتب المنزلة.

إن هـــذا التصــــور يعطى الإســــلام طبيعة جهادية تجعل المســلم على أهبة دائمــاً، وأبــدا، وإذا كــان المســيحى يحمل صــليبه، والفــارس يحمل سـيفه ودرعه فـإن المسـلم يحمل إيمانه وعقلـــه، لأنه يعلم أن الشـــيطان يســـرى من

هذا هو مما يخـرج عن إطـار الموضـوع، وما ننصح دائما بتجنبه باعتباره يتعلق بالمشــيئة الإلهية، وأنه من الغيب الـذى لا يكـون لنا ما نقوله عنه إلا ما يقوله القــــرآن، ولكن لعل الله تعـالى أعطانا إشـارة عنـدما خلقه من نـــار، وعنــدما ما يقــذف به فى النهاية فى النـار ليـذوب وينتهى.. من النـار بـدأ، وإلى النار يعود..

الإنسان مسرى الدم فتلك طبيعة الإسلام، وهـذا هو قدر المسلم..

* * *

الحياة ابتلاء واختبار:

لا تقتصر الطبيعة الجهادية للإســـلام على التصـور الإسـلامي للحيـاة، وكيف بـدأت. وكيف تطلبت الجهاد أبداً. إن هنـاك عنصـراً آخر يشـير إليه القــرآن الكــريم يحمل معــنى ومضــمون الجهـاد وإن حمل اسـما آخر هو "الابتلاء" وهـذا العنصر يوجد حتى لو لم يوجد الشـيطان ويـؤتى منه الإنسان من حيث لا يؤتى من الشيطان لأنه لا يكون من الشر دائماً، وإنما من الخير أيضاً ولا يكــون من الفاقة والمــرض والمنغصــات، ولكن يكــون من الصــحة والـثروة والراحة والبلهنيــة، وفى ضوء هذا الابتلاء قد تكون النقمة نعمة، كما قد تكون النعمة نقمة..

وللبلاء معـنى الشـدة، ولكن الابتلاء يتحـول ليصبح اختباراً وليضم إلى الشدة.. الرخاء أيضاً.

من البلاء أن لا يجد الرجل الفقــير فى بيته ثلاجة صــغيرة تــتيح له المــاء البــارد وتحفظ له طعامه من الفســـــاد، ولكن من البلاء أيضا أن تحتشد ثلاجة الرجل الغـــــنى بعشـــــرات من الأطعمة والأشــربة والمعلبــات والمشـهيات. إن إغراء الوفرة لا يقل أثـراً عن مـرارة الحرمـان.. لأن الأولى قد تؤدى إلى التخمة والبطنــة كما أن الثانية تـــؤدى إلى المجاعة والمســـغبة وكلاهما سيئ.

ومن البلاء أن يعيش بعض النـــــاس على الكفــاف وأن يتعرضــوا لمآسى الفاقة لأن هــذا

بالطبع يجعلهم فى صراع مع الضرورات والتزام بصنوف من الحرمـان، ولكن من البلاء أيضـاً أن تتضخم الثروات لدى فـرد أخر لأن هـذا التضـخم سيجعله راعياً له وسـيكون عليه أن يفـرغ نفسه لـذلك أو أن يسـتخدم فريقـاً لـه، وإذا علمنا أن المــال فى الإســلام هو أصــلاً مــال الله وأن الإنسان مستخلف فيه، ومـؤتمن عليه علمنا ثقل هذه الأمانة وأنه يندر من يقوم بحقها سواء بدفع الزكـاة عنها أو حسن التصـرف فيها وهـذا أيضـاً من الابتلاء.

والآيات القرآنية العديدة هى خــير ما يوضح لنا مدلول الابتلاء وموضوعه والغاية منه.

- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُــوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْـــوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَـــرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ﴾. {155 البقرة }
- ﴿لَتُبْلَـــوُنَّ فِي أَمْـــوَالِكُمْ وَأَنْفُسِـــكُمْ وَلَتَسْـــمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُـــوا الْكِتَـــابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْـرَكُوا أَذًى كَثِـيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُـــورِ ﴾ {186 آل عمران}..
- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُـوَكُمْ فِي مَا آتَـاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَـرِيعُ الْعِقَـابِ وَإِنَّهُ لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ﴾ {165 الأنعام}..
- ﴿وَقَطَّعْنَـــــاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّـــالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِـــكَ وَبَلَوْنَـــاهُمْ بِالْحَسَـنَاتِ وَالسَّـيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ﴾. { 168 الأعراف}..

- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ {31 محمد}..
- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. {35 الأنبياء}..
- إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ {7 الكهف}..
- ﴿فَإِذا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾. {4 محمد}..
- ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ {2 الملك}..
- ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي **(15)** وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي﴾. {16 الفجر}..
- ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. {2 الإنسان}..

هذا الذكر المتكرر لمعنى الابتلاء كاختبار يكون على المسلم أن يجتازه وأن ينتصر على ما قد يحيق به من متاعب، ومصاعب وكوارث، ومصائب.. وكذلك أن يصمد أمام إغراء المال.

والقــوة والصـحة ومختلف النعم الـتى ينعم الله بها على الإنسان فيطغى البعض، ويشـكر البعض الآخــر. وبقــدر ما تفتن الفاقة الفقــير فقد تفتن الثروة الغـنى بحيث يلتقيـان فى الافتتـان وعـدم الصمود... الحياة هنا اختيار مبدئى. ووقوف أمام الخير والشر، النعم والنقم موقفـاً صـامداً يغلب الضعف البشرى ﴿إِنَّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19) إِذَا مَسَّهُ الشَّـرُّ جَزُوعًا(20) وَإِذَا مَسَّـهُ الْخَيْـرُ مَنُوعًا(21) إلا الْمُصَـــلِّينَ(22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـــلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾. {23 المعارج}..

ويصل هــذا الابتلاء إلى غايته فى التصــوير الرمزى البليغ.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْـهَا وَحَمَلَهَا الإنْسَـــانُ إِنَّهُ كَـــانَ ظَلُومًا جَهُـــولاً﴾. {72 الأحــزاب}.. فمــاذا نفهم من هــذه المســئولية الثقيلة التى أشفقت الجبال والسـموات والأرض عن حملها إن لم تكن هى الحرية الـــتى مُنحها الإنسان والتى هى فى أصل الاستخلاف والابتلاء ومنعت منها الأجــرام الســماوية الــتى تســير بمقتضى القــوانين الــتى وضــعها الله ولا تملك عنها انحرافاً أو تحللاً.

إن التصــور الإســلامى للحيــاة الإنســانية باعتبارها كفاحــاً ضد غواية الشــيطان وصــبراً وثباتــاً عند الابتلاء والاختبــار يعطيــان الفعالية الإنسانية تكثيفاً قد لا نجـده فى أى عمل درامى أو فنى ولا يمكن أن يتطـرق إلى نفس المسـلم فكرة عن عبثية الحياة أو ما ساور الشاعر:

حيـــاة ثم مـــوت ثم بعث حـــديث خرافه يا أم عمرو..

أو ما استقر فى أعماق المشــركين إن هى إلا حياتنا الـــــدنيا. نمـــــوت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر..

فهنا نظـام محكم كأشد ما يكـون الأحكـام، مرتب كأتم ما يكون الـترتيب، شـامل كأوسع ما يكون الشمول، له بداية يبدأ منها وله غاية ينتهى إليها ويتطلب الإيمـان والالـتزام والصـمود، يحف به الوعد والوعيد. ويستتبع حساباً بمثقال ذرة... ثم إلى جنـــة.. أو جحيم. ويـــوفر الحرية الـــتى تتضمن بالطبع حرية الاختيار ما بين الخير والشر ويضـفى على هـذا كله طابعـاً ربانيـاً وغلاله من الغائية الإلهية الخالقة القاضية.

عندما يؤمن الإنسـان بهـذا التصـور وما فيه من إحكـام وإبـداع وشـمول تتملكه حالة نفسـية تجعله يستشـعر ما استشـعره الأنبيـاء. ﴿قُـلْ إِنَّ صَـــلاتِي وَنُسُـــكِي وَمَحْيَـــايَ وَمَمَـــاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ(162) لا شَـرِيكَ لَـهُ وَبِـذَلِكَ أُمِـرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْـــلِمِينَ﴾. {136 الأنعـــام}.. وهو أيضا الذى يمكن أن يفهم فى ضوء الآية – التى أسيئ فهمها – ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِـنَّ وَالإنسَ إلا لِيَعْبُدُونِي﴾ بحيث تكون الحيـاة نـذراً وتطبيقـاً لما خلق الله الإنســان من أجله من أداء الطيبــات واجتنــاب السـيئات واتبـاع هداية الأنبيـاء واجتنـاب غواية الشياطين فهذا هو محض عبادة الله...

ومن الناحية المقابلة فهل يتصـــور فى مثل هـــذا المجتمع أن يحس الإنســـان بالاكتئـــاب أو الاغتراب أو العبثية أو الملل القاتل؟؟ أو يشـغله

التساؤل من أين جـاء وأين انتهى؟ هـذا لا يمكن أن يرد على ذهن إنسان يؤمن الحياة كما يقدمها التصـور الإسـلامى بداية بـالخلق ونهاية بـالبعث، وفيما بين هذين كفاحـاً واختبـاراً ومسـارعة فى الخـيرات واسـتباقاً إلى الفضـائل والإقبـال على الحسنات.. والعزوف عن السيئات.

وقد صور الرسول موقف المؤمن "عجبـاً لأمر المـــؤمن" إن أمـــره كله له العجب وليس ذلك لأحد إلا المـؤمن. إن أصـابته سـراء شـكر فكان خيراً، وأن أصابته ضراء صـبر فكـان خـيراً له (مسـلم). وكـذلك "إن الله إذا أحب قومـاً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ومن سـخط فله السـخط". متفق عليـه. والحقيقة أن العجب لا يقف عن هـذا، لأنه فى الـوقت الـذى يجعل الإيمـان المـؤمن راضـيا لا تنغصه المتـاعب، ولا يـأسَ على ما فاتـه، ولا يفـرح لما يؤتـاه. يكـون عليه أن يدخل فى الكفاح مع قوى الشر وإغـواء الشـيطان، وزهو السـلطة والـثروة، وقهر الفاقة والمرض أى أن يجمع بين أهبة المحارب، وسلام المؤمن..

قد تضيق نفس الإنسان الأوربى المتحـرر بهـذا العـالم الملـتزم، ولكن ما هو مصـيره؟ فى بعض الحـالات ينسـحق تحت ضـغط تـوترات الحياة الحديثة. أو الاكتئاب أو الإغواء أو يعب من اللذات حتى تفقد لـذتها.. فيجد نفسه حيث بـدأ. أو يحاول أن يتابع عجلة الاسـتهلاك فلا يسـتطيع، لأن كل يـوم يوجد حاجة جديـدة يجب إشـباعها فيجرى خياله لاهثا أو ينتفخ ويستعلى بما وضـعه العقل الإنساني فى يده من وسائل القـوة الـتى دفعت به إلى أعمـاق البحـار ورفعته إلى أجـواز

السماء فتكون النتيجة الغرور والاستكبار والزهو والازدهـــاء.. والانـــدفاع الـــذى يصل إلى حافة الانتحار النووى.

أن الانتحار فى المجتمع الأوربى قد يكون يأساً واكتئابا كما قد يكون استعلاء على الحياة.. واستباقاً للموت، وجعله – فيما يظنون – إرادة وليس قضاءً.

وهذه كلها خيارات شاذة.. مهلكة.. تنتفى منها الغائية والاعتـــدال ولا تجعل من الحياة ساحة لجهاد، تنتهى بنصرة الحق.. ولكن ساحة الصراع أهوج ينهى نفسه بنفسه.

بعد هـــذا التصـــوير عن "الطبيعة الجهادية للإسلام نستطيع أن ننتقل الآن لتوضيح مفردات، ووسائل الجهاد، وما يمكن أن نســميه "دســتور الجهـــاد الإسلامى".

الفصل الثالث
دستور الجهاد الإسلامى اليومى والدائم

رأينا أن الإسـلام له طبيعة جهاديـة، وهـذه الطبيعة تقتضى من المسـلم سـلوكاً خاصـاً، والتزامـاً بـالقيم الجهادية فى الإسـلام إيجابية وسـلبية. وهـذا السـلوك هو ما يتضـمنه بالدرجة الأولى والأساسـية توجيهـات وموجبـات القـرآن الكـريم، كما تجلى فى سـلوك وسياسـات وتصـرفات الرسـول، وسـنعرض هنا لأبـرز هـذه التوجيهات..

1- هدى القرآن:

" وجاهدهم به..."

وقفت طويلاً أمام هذه الآية: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِـهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾. {52 الفرقان}..

الضمير هنا يعود إلى القرآن الكريم.

كيف يمكن للرسول ﷺ أن يجاهد بالقرآن.

وكيف يمكن للمسلمين أن يجاهدوا به.

وكنت كلما أفكر كلما كـانت تتفتح أمـام بصيرتى آفاق ومجالات ووسائل وطرق.

من الممكن أن يتلو الرسـول القـرآن على مسامع المشركين وقد أمره الله بذلك ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُـرْآنَ فَمَنْ اهْتَـدَى فَإِنَّمَا يَهْتَـدِي لِنَفْسِـهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنْ الْمُنذِرِينَ﴾.{92 النمل}..

وما كان الله تعالى أن يقول هـذا لـولا أنه يعلم أن فى القـرآن نفسه – فى معانيه وألفاظه وأسـلوبه ونظمه ما يـؤثر على نفس المشـرك بحيث يزلـزل شـركه ويجعله "يعـود بوجه غـير الذى دخل به"..

وقد حدث هذا...

ولكن هناك ما هو أكثر...

هناك أن يتوجه الرسول، والـدعاة إلى غـير المسـلمين، بالمعـان والتوجيهـات الـتى أمر بها القـرآن الكـريم وهو ما يـدخل فى الـدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة..

ولكـنى كنت أفكر فى اسـتخدام القـرآن كـأداة للجهـاد، كما هو منطـوق الآيـة، وليس للهداية.

وهذا ما توصلت إليه أخيراً...

إن قـراءة القـرآن، والاسـتماع إليه بصـفة منتظمة، أو شبه منتظمة، تبنى شخصية المسلم وتزوده بروح الكفاح بل وتعده لهذا الكفاح.

وإذا راجعنا القرآن لوجدنا أن ثلاثين سـورة على الأقل من السـور الطـوال الـتى تحمل فى تـرتيب الأرقـام من 10 إلى 30 وتبـدأ بسـورة يونس، وتنتهى بسورة السجدة الـتى تحمل رقم 32 كلها سور مكية لا تتضمن قتـالاً ولكن جهـاداً وكل سورة منها تحرك الجبال فما بالك بالإنسان وتحمل من القوى والمحفزات ما يدفع للجهـاد.. وتتضمن من القوارع والتنديد ما يؤدى إلى الكف عن كل شر، أو بخل أو استخذاء.

وطالمـــاً كنت أســـائل نفسى كيف توصل محمد إلى تربية جيل الصحابة وحولهم من عامة عـرب قـريش إلى رسل حضـارة فيهم أفضل ما يشـــترط فى بنـــاه الإمبراطورية من صـــدق وإخلاص وشـجاعة. وقد انتهت إلى أن هنا يعــود بالدرجة الأولى إلى الاستماع المنتظم والمستمر للرسول وهو يتلو فى صحراء مكة النائية السور الطـــوال فى صـــلواته، ولا ســـيما الصـــلوات المشهودة، صلاة الفجر، وصلاة المغرب، وصـلاة العشـاء. الـتى كـانت جمهـرة الصـحابة رجـالاً ونســـاءً يحضـــرونها، وأتصـــور أن الملائكة أيضا كـانت تحضـرها وتضع أجنحتها لهـا.. إن صــوت الرسول. ونظم القرآن ومعـانى الكلمـات كـانت تـنزل من شـفتى الرسـول إلى أعمـاق القلـوب لتقر بها وتنغـرس فيها ما تنطـوى عليه من أمر ونهى ووعد ووعيد دفع للخـــــير ومقاومة للشر وصـبر على المشـاق وصـدق فى القـول ووفـاء بالعهد وعـــدل فى التعامـــل.. كل هـــذه القيم يسـوقها القـرآن فى نسق فريد وفى نظم له ما للموسيقى من أثر فى النفس.

أن كل أساسـيات الإسـلام ودعائمه وقيمه تكــون على أفضــلها فى القــرآن الكــريم، ولا يقتصر عنصر الامتيــــاز على حسن العــــرض وســـلامة التصـــوير، ولكن يضـــاف إليه النظم الموسـيقى الـذى يعطى المعـانى قـوة وعذوبة ويـــدفع بها إلي القلب وهـــذه هى أهمية التلاوة، والأمر الإلهى "وأن أتلو القـرآن..." أو الاسـتماع إليه هى طريقة تعلمه.

نعلم أن الفنـون والآداب تقـوم فى العصر الحديث بدور بارز فى التثقيف وصقل الشخصية

وتنمية الوجـدان وأن الاسـتماع إلى الموسـيقى فى نواديها أو حضور السيمفونيات ذات الشـهرة العالمية وكذلك حضـور حفلات الأوبـرا والباليـة.. كلها جـــــزء لا يتجـــــزأ من الثقافة الاجتماعية للإنســـــان الأوربى. وهم يحضــــرون فى أبهى ملابسهم – رجالاً ونساءً – ويجلسـون يسـتمعون فى صـمت وإصـغاء فلا ترتفع نأمه حـتى ينتهى المشـهد ليكـون من حقهم التصـفيق وهم يـرون أن هذا الجانب من أهم جوانب سمات الشـخص المتمـدن والمهـذب، وأذكر ما رواه أسـتاذ فى الجامعـات الأمريكية – من أصل عـربى. من أن إحدى السـيدات ألحت فى زيارته بمنزلـه، ورغم غرابة هـذا الطلب. فقد رحب الرجل ودعاهـا، فلم تكد تـدخل وتشـاهد بيـانو كبـير فى الصـالة حـتى سـألته عنه وعنـدما قـال لها إنه خـاص به وأنه يعـزف عليه أحيانـاً حـتى ولت على أعقابها وفهم الأسـتاذ بعد ذلك أن رؤية هـذا البيـانو دلها على أنه أسـتاذ مثقف متمـدن كـالأوربيين، وأنه ليس شـــرقيا بـــدائياً. كما قد يتبـــادر إلى ذهن بعضهم !.

صـلاة الجماعـة، والاسـتماع إلى السـور الطـوال، خاصة إذا كـان فى مسـجد مفتـوح كمســـجد الرســـول فى المدينة حيث تتبـــدى الشمس الغاربة.. أو السـماء الصـافية. وفى جو الاسـتغراق الـذى تفرضه الصـلاة بحيث لا يرتفع صـوت خلال القـراءة تنتقل الآيـات إلى النفس وتفعل فعل السحر فيها وعندما يتكرر هذا يصبح طبيعة ثانية.

فى العصر الحـديث كـانت إمامة الإمـام الشهيد حسن البنا لشباب الإخـوان فى صـلوات

"الكتيبــة" فى المغــرب والعشــاء، أو الفجر من أقوى الأسـاليب فى التكـوين الـروحى والنفسى لشباب الإخوان. وقد قدر لى أن أشـهد إحـداها، كما أنى أذكر حـــتى الآن صـــلاة الإخـــوان فى معتقل الطور وكان يؤمنا أحد العمـال، وكـان له صـوت شـجى مـؤثر ينفذ إلى القلـوب ولا أزال أتذكر صوته – بعد خمسين سنة – وهو يتلو دعاء إبراهيم فى سورة إبراهيم كأنما يصــدر من قلبه وهو يقف عند آخر الآية 40 من الســـــورة وهى كلمه "دعـــاء" رب أجعلــنى مقيم الصـــلاة ومن ذريتى وتقبل دعاء..

وكثـيراً ما تتملك الحـيرة والعجز طـالبى الإصلاح.. أنى لهم أن يصلحوا النفـوس ويعـالجوا القلوب.. وأنا أدلهم على طريقة سهلة وسـائغة، تلك هى المشاركة فى صـلاة المغـرب والعشـاء (وحبــذا لو كــان يــوم خميس) وراء إمــام يتقن القراءة على غير عادة القـراء. فهو يقـرأ قـراءة متأنيـة، واضـحة، يـؤدى فيها للحـروف حقها كما فى علم التجويد ولكن دون تقعر – وأن لا يكـون ذلك فى مســــجد مغلق ولكن فى صـــــحراء مكشـــوفة يقـــرأ ســـوراً من الســـور الطـــوال (الأعـــراف أو الإســراء أو التوبة الخ...) أؤكد أن وقع الكلمات سيكون عليهم أعظم أثراً من وقع الموسـيقى على الأوربـيين، وأنهم سيتشـربوها، وفى النهاية يمكن أن توجد فيهم الســــــــليقة القرآنية...

إننا نؤكد هنا ضرورة الاقتصار على التلاوة بالصورة التى حددناها، بحيث لا يكـون هنـاك أى شرح أو تفسير.

نعود إلى الغـرض من إيـراد كل هـذا.. أن الرسـول جاهد المشـركين بـالقرآن بطريقـتين. فمن ناحية فإنه عنـــدما كـــان يتلـــوه عليهم، أو يدعوهم بما فيه من الحكمة والموعظة الحسـنة فإنه كان يزلـزل شـركهم ويعـدهم للإيمـان ومن ناحية أخرى فإن صـلواته بالمسـلمين خاصة فى مكة، وقراءاته بالسـور المكية الطـوال كـان من أكــبر العوامل الــتى غرست هــدى القــرآن فى نفوس الصحابة بحيث خلقهم خلقاً جديداً، وكيف لا يخلقهم خلقاً جديداً وهو يقـرأ عليهم ﴿وَلَـوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِـهِ الْجِبَـالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِـهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِـهِ الْمَـوْتَى بَـلْ لِلَّهِ الأَمْـرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَـاءُ اللَّهُ لَهَـدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَـنَعُوا قَارِعَـةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَـأْتِيَ وَعْـدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. {31 الرعد}.

أى واحد يســـتمع حاضر القلب إلى تنديد القـرآن بالبخل واكتنـاز الأمـوال، وأمـره بـالكرم والإنفاق ثم يكون بخيلاً؟ وأى واحد يســمع تقريع القرآن للذين لا يتفكـرون ولا يتـدبرون ويقولـون نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ثم يكـــون مقلـــداً دون فكر أو تدبير؟ أى واحد يسمع الثناء الجميل على القلب السـليم. والعمل الخـيّر، والوفـاء بـالعهود والصـــدق فى القـــول والإخلاص فى العمل ثم يكون ناكثاً للعهد، فاعلاً للشر، تاركا للخير.

كيف يمكن أن يــدعى أنه مسـلم، ويحلف بالقرآن وهو يخالف القرآن ليل نهار !.

إن السـماع المنتظم لآيـات الـذكر الحكيم يخلق الإنسـان خلقـاً جديـداً يـذهب بالأباطيل

والشهوات والعادات الموروثة ويهــدى إلى القيم العظمى من عدل، وحرية، وإخلاص وخير...

وقد لا يتم هذا فــوراً، أو بالصــورة الكاملة لأن العادة طبيعة ثانية، والتقاليد تتملك النفــوس وليس من الســـهل التحـــرر منهـــا، ولكنه مع المواظبة والاستمرار يحدث .

فإذا كان هـذا لا يحـدث اليـوم، فـذلك لأن المســلمين لا يقــرأون القــرآن. وإنما يقــرأون التفاســـير ولا يســـتمعون إلى القـــرآن ولكن يستمعون إلى تلحين القرآن. أو يكرون كراً دون أى وعى أو فكر كلمـات الـذكر الحكيم تنشـيطاً لعضــلات اللســـان! وليس فى هـــذا أو ذاك ما يفيــد.. ثم هم لا يمنحـون القـرآن قلـوبهم ولكن آذانهم أو حتى بعض آذانهم لأنهم يستمعون وهم مشغولون باهتمامات أخرى، ومثل هذا بالطبع لا يـــأتى نتيجة وإنما تـــأتى النتيجة عند الســـماع المنتظم للســـور الطـــوال فى الصـــلوات لأنها المناسـبة الـتى تهـيئ القلب. وهـذه هى الحكمة فى الصلوات الطويلة التى كان الرسول يؤديهــا. أنها كـانت تعليمــاً للمســلمين وبنــاء لنفوســهم، فلابد من تخصـــيص الـــوقت اللازم لـــذلك لا باعتبارها أداء عبادة ولكن باعتبـاره جهـاداً وبنـاءً للنفس لأن العبـــادة يمكن أن تـــؤدى بقصـــار السور، والله تعالى غنى عن العالمين. وما يــراد من هذه الصلوات هو أن تنطبع الآيات على قلب المسلم فتخلقه خلقاً جديداً...

ومن الخـــير أيضـــاً أن يفكر الخطبـــاء فى صلاة الجمعة وغيرها فى استخدام القــرآن بــدلاً من كلامهم الغث. وقد كـــان الرســول يخطب

بالقرآن. وتحدثت صحابية أنها ما حفظت سـورة "ق" إلا من كثرة ترديد الرسول لها فى خطبه.

2- الصبر والثبات فى مواجهة الاضطهاد.

ما أن يؤمن المؤمن حتى يتعـرض لصـنوف من الاضـطهاد، هـذه سُـنة الله فى المجتمع الإنسـانى. وقد تعـرض لها المؤمنـون الأول وتحـدث إليهم الرسـول عن الرجل الـذى كـان يشق رأسه بالمنشـار وذكر القـرآن الكـريم الأخدود الملتهب الذى يلقى فيه بالذين يرفضون كلمة الكفر ويتمسكون بكلمة الإيمان. ونعلم من التـاريخ الـويلات والفظـائع الـتى تعـرض لها المسـيحيون الأول على يد أبـاطرة الرومـان.. وكيف كـانوا يجعلـونهم طعمه للوحـوش المفترسة..

وقد تعـرض المسـلمون الأول لصـنوف من الاضـطهاد صـبها عليهم سـادة قـريش وأثرياؤها حتى راح ضحية لها ياسر أبو عمار وسـمية أمـه. فكـان الرسـول يمر عليهم وهم يعـذبون فيقـول لهم "صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة"

وقد يسـتغرب البعض هـذا الموقف من الرسـول أو يتصـور أنه قد كـان عليه أن يفعل شيئاً ليخفف عنهم العذاب الأليم..

ولعل الرسول كان يتمنى ذلك أيضـاً. ولكن ألقى فى روعه أن الصـبر، وليس التخفيـف، هو السـلوك الأمثل فى مواجهة الاضـطهاد، لأن القضية ليست قضية حالة فردية، فهناك الملايين من الرجـال والنسـاء أمثـال ياسر وسـمية سيتعرضـون للعـذاب فى سـبيل مبـادئهم ولن

يجدوا نبياً يشفع لهم وسيكون عـزاءهم الوحيـد، ومصدر مقاومتهم وصبرهم هو أنه كان هناك فى صحراء العرب القاحلة من عذب حـتى مـات من العـذاب، بمقربة من نـبى الرحمـة، ليقضى الله أمراً كـان مفعـولاً. وليمض ما وضـعه من أسس وأصول لظهور الدعوات ونجاحهـا. رغم ما يوضع فى سبيلها من عقبات وما يتعرض له دعاتها من عذاب..

إننا لا نجد من يشفع دائماً، وإن وجد أحيانا، وقد وجد فى حالة ضعفاء – مكة فى شخص أبى بكر الـذى اسـتنقذ خمسة أو سـتة منهم، ولكن يظل هذا استثناء ولا نجد وسيلة لـدفع العـذاب.. فـالأبواب مغلقة والأسـوار منيعة ولا يسـتطيع الـذين فى الـداخل شـيئاً، كما لا يسـتطيع الـذين فى الخارج شيئاً.. فلا مفر فى النهاية من الصـبر وإذا اسـتطاع الظلم أن ينتصر بـأن يقضى على البقية الصـابرة، فـإن هـذا لن يكـون النهاية بل سـيكون البداية على أيـدى أبنـاء وأحفـاد هـؤلاء القتلى. إن التـاريخ ليس معركة واحـدة تنقضى فينقضـى، ولكنه الحـرب السـجال الطويلة عـبر الأجيال..

وفى ضـوء هـذه الحقـائق نفهم توجيه القـرآن الرسول والمؤمنين للصبر..

وليس معنى هذا أن يستسلم المعـذبون لو أنهم اسـتطاعوا حيلـة، ولا أن يسـتكين الهم وذويهم وإخوانهم فى الخارج فلا يحركوا ساكنا.. فإن هذا يدخل بالطبع فى بـاب الجهـاد، على أن لا ينزلق هـذا إلى العنف المُضـل. ولكن سـوابق التـاريخ توضح لنا أن الأغلب الأعم أن يعجز هـؤلاء، وأولئك عن أن يعملـوا شـيئاً. ولا يبقى

أمـام الجميع حـائلاً دون الاستسـلام إلا الصـبر والثبات.. وسيظل الصبر هو الحارس اليقظ لكل الدعاة ساعات محنتهم وخلال تعذيبهم. وقد كان هذا هو حال الإخوان المسلمين الذين عـذبوا فى سـجون الطاغية الأثيم عبد الناصر وسـجون الطاغية المجـرم حافظ الأسد عليهما اللعنة وسوء الدار..

ولكن لا يـدخل فى هـذا مقاومة المجتمـع، لأن هـذه المقاومة لابد وأن تأخذ شـكلاً سـرياً، ولابد أن تلوذ بصور من العنف أو اللاشرعية مما يسمح بانزلاقـات خطـيرة، دون أن يحقق شـيئاً، ولو فكر أعضاء الجماعات الإسلامية فى سياسة دعوة الرسول فى الفـترة المكيـة، وكيف أنه لم يقم بـأى مقاومة يقـارع بها المجتمع الجـاهلى، لقاء ما ارتكبوه من حماقات لفهموا حكمة ذلـك، ولما انساقوا فى "جهـادهم" الضـال العقيم ولما لاذوا بصـور من العنف أسـاءت إليهم وإلى الإسلام، وإلى الأمة كلها.

الصـبر إذن هو المسـلك الأمثـل، ومن ثم جاءت توجيهات القرآن آمرة به..

- ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. {177 البقرة}..
- ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. {250 البقرة}..
- ﴿ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾. {146 آل عمران}..

- ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾. {186 آل عمران}..
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. {200 آل عمران}..
- ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾. {34 الأنعام}.
- ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. {12 إبراهيم}
- ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. {35 الحج}..
- ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾.{35 الأحقاف}

ولا يوجد صبر إلا عندما يوجد الإيمان بالله، لأنه الأقوى من الطغاة، ومن العذاب.. ولأن إليه المآب فى النهاية فالمؤمن بالله حقا يصبر لأنه نوع من الجهاد، فإذا قتل أو مات فإنه يظفر بالشهادة وأن عاش يظفر بالبطولة وبقدر إيمانه بالله يكون صبره على العذاب..

3- الحكمة والموعظة الحسنة

فى التعريف بالدعوة

ما الذى يجعل دعوة تزدهر، وتنتصر بينما تفشل دعوة أخرى وتنغلق وتنطوى؟ عندما

تتساوى العوامل، فإن الدعوة التى يلجأ دعاتها إلى الحكمة والموعظة الحسنة هى التى سيكون لها الانتشار والانتصار.

لقد قال القرآن الكريم فأوجز، وأعجز، وبلغ الغاية ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. {125 النحل}..

فرسم فى هذه الآية سبيل الدعوة..

ومرة أخرى:

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. {46 العنكبوت}..

وأى سبيل آخر غير الحكمة لا يمكن أن يجدى جدواها أو يشجى شجواها.. أو يبلغ منتهاها.. فالمال مثلاً لا يمكن أن يثمر فى ميدان الدعوات. إن الذين يعطى لهم يأخذونه ويلعنون صاحبه! ويرون أنهم أحق به منه.. وهو لا يصنع أخوة أو يحكم رابطة وصدق الله ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. {63 الأنفال}..

والسلطة لا تجدى فتيلاً فى الدعوات وستأتى بالانتهازيين والطامعين والمنافقين الذين يزيدون الحاكم خبالاً وضلالاً. ولعلهم يفعلون سراً عكس ما طلب إليهم جهراً...

ولو كـان المـال أو السـلطة يجـديان لكـان الأنبيــاء والــدعاة من الأثريــاء، والحكــام. ولكن هذين بالذات هما أبعد الناس من الدعوات..

ليس إلا الحكمة والموعظة الحســـــــــنة. بألفاظها ومعانيهـا، أى السـلامة فى عـرض فى الموضـوع الـتى تكشف عن حكمتـه، والأسـلوب الحسن الــذى يكفل قبولها والمحاولة بالحسـنى الـتى تفند الشـكوك والشـبهات ثم بعد هـذا فلا تأسى إذا لم يؤيد البعض، لأن الله تعـــالى أعلم بهم منك..

وقد كـــانت ولا تـــزال – الحكمة والموعظة الحسنة هى أمثل الطرق فى اكتسـاب الأعضـاء للدعوات فإن فرداً واحداً تكسـبه الـدعوة يمكن أن يكون أمـه.. إن أبا بكر وحـده كسب للإسـلام المجموعة التى قادت الإسلام بعد ذلك. وعنــدما مر المســيح على صــائد ســمك. دعــاه وجعله صــــائداً للنــــاس وأرتفع إلى مســـتوى كبـــار الحواريين..

ومع انتشار وسائل الدعاية الحديثـة، وقـوة تأثيرهــا، فلا تــزال العلاقة الشخصــية، والكلمة المباشـــرة من فم إلى فم هى أكـــثر الطـــرق فعالية للتوصل إلى العناصر الصالحة. لأن الصلة الشخصية هى أوثق العلاقات وهى تجعل الداعية يختــار أفضل العناصر بحكم معرفتــه، ويســتبعد من لا خلاق له، أو من ليس مؤهلاً لحمل الدعوة فيدرأ عنها كثيراً من الغثاء الذى يحسب عليها لا لهــا. وهــذا العنصر الصــالح سيســتمع من قلبه لصـديقه لأنه يعلم أنه جـاد. وسـيقوم بـدورة فى الدعوة وبهذا تنتقل الــدعوة من الداعية لتكسب داعية أخر وهلم جراً..

ولا يمنع هذا بالطبع من أن وسائل الدعوة الأخرى كالنشرات والرسائل والكتب والاجتماعات والندوات الخ... تستخدم فقد يكون أسلوب الدعوة الفردية وحده مما لا يتسق أو يسير مع السياق.. ولكن هذه الوسائل من اجتماعات ونشرات تأتينا بالكثير من الغثاء.. الذى تضيق به الدعوة فيما بعد، ويكون عليها أن تخلص منهم.

وإشارة الآية الكريمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. توجه الدعاة لعدم إلحافهم بالدعوة على الذين لا يتقبلونها لهذا السبب أو ذاك. لأن السلامة الموضوعية للدعوة قد لا تكون سببا للإيمان، فقد يكون هناك من العوامل الذاتية ما يجعل فرداً ما يرفضها لأنها تخالف مصالحه الخاصة أو تؤثر على وضعه الاجتماعى الخ...

وهناك أمر آخر وثيق الصلة بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.. ذلك أن المسلمين مطالبون بتعريف العالم على الإسلام وتعميق هذا بالطبع – ولو ضمنا – دعوة للإيمان به، ولكن هذا ليس جزءاً لا يتجزأ من دعوة التعريف وهى التفسير للنص القرآنى ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. لأن النص وإن كان يوحى الخصوصية بعهد الرسول، فإن العبرة هى بعموم النص وليس بخصوص السبب – كما يقولون.. ويجب أن يتم هذا بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا تطلب تحاوراً فيجب أن يتم طبقاً للأصول التى وضعها القرآن "بالتى هى أحسن" وأن ينتهى الموضوع عند هذا، لأن الإسلام وإن كان له جانبه الحضارى والقيمى

الـذى يسـتحق العـرض والـدفاع، فـإن له جانبه العقيدى الإيمانى الـذى يخضع لاعتبـارات عديـدة ارتـأى معها القـرآن أن يكتفى بمجـرد التبليغ ثم ترك الأمر لله..

4- الإنفاق – الإنفاق:

وَجَاهِدُوا بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهُمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ..

من يتقصى آيـــات الجهـــاد يجد أنها تضم الذين "يجاهدون بأموالهم وأنفسـهم" ويلحظ أن القرآن الكريم قدم الأموال على النفوس.

- لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّــرَرِ وَالْمُجَاهِــدُونَ فِي سَــبِيلِ اللَّهِ بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِــهِمْ فَضَّـلَ اللَّهُ الْمُجَاهِـدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَــةً وَكُلا وَعَــدَ اللَّهُ الْحُسْـنَى وَفَضَّـلَ اللَّهُ الْمُجَاهِـدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا. {95 النساء}..
- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُــوا وَهَــاجَرُوا وَجَاهَــدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَــرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُــهُمْ أَوْلِيَــاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُــوا وَلَمْ يُهَــاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَــيْءٍ حَتَّى يُهَــاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنصَــرُوكُمْ فِي الــدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْــرُ إِلا عَلَى قَــوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُـونَ بَصِـيرٌ. {72 الأنفال}..
- الَّذِينَ آمَنُــوا وَهَــاجَرُوا وَجَاهَــدُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَـةً عِنْـــدَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَــائِزُونَ. {20 التوبة}..

- ﴿لَكِنْ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾. {88 التوبة}..
- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ﴾. {15 الحجرات}

أن إدخال الأموال فى باب الجهاد وتقديمه على النفس أمر قد يثير الدهشة لأن النفس أكرم من المال.

ولكن هذه الدهشة تتبدد إذا تذكرنا أن الجهاد أسلوب فى الحياة. يعنى بذل الجهد، كل الجهد، فى سبيل الخير، كل الخير. فى هذا الأسلوب يكون جهاداً بذل المال إعانة لمحتاج، أو مشاركة فى تسليح أو تزويدا لمحارب بالعدة، أو مساهمة فى بناء مؤسسات للخير أو حتى القيام بنشاط اقتصادى للشعب ييسر الوظائف وينهض بمستوى المعيشة هذا كله فى صميم جهاد الحياة اليومية، بل لا نغالى إذا قلنا إن هذا الجانب هو ما يشغل الناس جميعاً، فقضية المال والحرص على تملكه واكتنازه أو استخدامه فيما تهوى الأنفس من شهوات واستمتاع أو الحرص على كسبه بطرق قد يدخل فيها استغلال العمال وظلم الفلاحين الخ... هذه كلها هى ما يملأ مخيلة، وطموح، معظم الناس وما يؤدى إلى ما يعانيه المجتمع الحديث من مظالم وأزمات وما الفرق بين المسلم المؤمن الذى يبتغى بحياته رضا الله ورضوانه.. وبين اليهودى الجشع أو الرأسمالى الذى لا يعُنى إلا بمصالحه

ومكاسبه؟ أن حُسن التصرف فى المـال هو أحد الوسـائل البـارزة فى طـرق ووسـائل الجهـاد.. **ولأنه يصـدر عن الفـرد ولأنه يعـرض كل يــوم، فــإن القــرآن قدمه على الجهــاد بـــالنفس الـــذى لا يُتطلب إلا لحظـــات القتـال الاسـتثنائية والـتى عـادة ما تأخذ شكلاً جماعياً.**

وأدلل على الأهمية القصـــوى الـــتى تجعل الأنفاق جهاداً بالمثلين التاليين:

أولا: قرن القرآن الكريم الزكاة بالصــلاة، فلا يــذكر الــذين يقيمــون الصــلاة إلا ويقرنهــا، "ويؤتــون الزكــاة" بصــورة جعلتنا نصـدر إحـدى رســالاتنا عن الزكـــاة تحت أسم "أخت الصـــلاة المهجـورة" وكما هو معلـوم فـإن رفض القبائل العربية دفع الزكاة كان هو الدافع الرئيسى الذى جعل أبا بكر يحاربهم وجعل المسـلمين يعتـبرون هــذا العمل ردة، ولو حكمنا بهــذا المعيــار على مســـلمى اليـــوم لأصـــبح معظمهم فى عـــداد المرتـدين الـذين يفرقـون بين الصـلاة والزكـاة فيؤدون الأولى ويغفلون الثانية واســتحقوا عجب الشاعر:

عجبت لمعشر صلوا وصاموا ظواهر خشـية وتقى كذابا

وتلقاهم حيال المــال صُماً إذا داعى الزكـاة بهم أهاباً

ولا يتسع المجــــال للحـــــديث عن عبقرية الزكـاة وقد بينا عشـرة وجـوه تفضل بها الزكـاة

النظم الأخـرى الـتى وضـعها المجتمع كالضـمان الاجتماعى أو صور التأمينات[5].

ثانيـا: الحملة الشـعواء إلـتى شـنها القـرآن الكـريم على الربا وتهديـده لأصـحابه بحـرب من الله ورســـوله والــــتى أريد بها الحـــرب على الاســــتغلال الاقتصــــادى وضـــرورة ملاحظة الاعتبـارات الـتى تتحكم فى الفقـراء إلى درجة جعل فيها القرض نوعاً من الصدقة عندما سـمح بتأخير دفعه إلى ميسرة وأنى للفقير المسـتدين من ميســـرة ؟ إن منطق الإســـلام هو أن على الـدائن الغـنى أن ينظـره إلى النهاية أو يحتسب قرضه صدقة فى سبيل الله. فـإن هـذا وإن أخل بحساباته فلن يعجزه.. ولكن السداد هو ما يعجز عنه الفقير.

ولكى يعزز القرآن الكريم الجهـاد بالمـال، فإنه فى آيـــات عديـــدة حـــذر من البخل ومن الأكتناز وتوعد الذين يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها فى سبيل الله بالنـار ﴿يَـوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَـــارِ جَهَنَّمَ فَتُكْـــوَى بِهَا جِبَـــاهُهُمْ وَجُنُـــوبُهُمْ وَظُهُـورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَـزْتُمْ لأَنفُسِـكُمْ فَـذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

كما أنه رفع الأنصـــار إلى أعلى مرتبة لأنهم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَـانَ بِهِمْ خَصَاصَـةٌ﴾. {9 الحشر}..

وحدد القرآن الكريم فيم يكون الإنفاق..

---

5 (1) "أخت الصلاة المهجورة" وهى إحدى رسائل الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل. من ص26 إلى ص30.

من هنا جـــاء حث القـــرآن الكـــريم على الجهــاد بــالأموال واعتبــاره أعظم قـــربى إلى اللـــه، وأولى وســـيلة فى الجهـــاد، لأن أثـــره يعم المجتمع ويحل مشــاكل الحيــاة اليومية فيــه. ويمكن أن يسـعد، أو يشـقى، الملايين من النـاس بـدءً من الأسرة والجار إلى كل المواطنين.

واستعراض هذا، يجعلنا بدلاً من أن نندهش لاعتبــار الإنفــاق وســيلة من وســائل الجهــاد.. ننــدهش كيف فاتنا ذلــك، ولم نعتــبره من أولى وسائل الجهاد.

5- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أسلوب التعامل مع الانحرافات

الأســباب الــتى تــدفع بالمجتمعــات إلى الانحراف عديدة والوقـوع فيها هو مما لا منـاص عنــه. فقد أشــرنا إلى قــوة الشــهوات وجاذبية المـــال والســـلطة، وأشـــرنا إلى أن الطبيعة البشرية بها عرق يـنزع إلى الهبـوط إلى الأرض، وتحـدثنا عن الابتلاء الـذى يتطلب قـوة وصـموداً يغلب أن لا يتـوفرا لمعظم النـاس. بل حـتى فى مجال الهداية الإسلامية لا نعدم أسباباً تؤدى إلى الانحـراف مثل سـوء فهم النصـوص. أو التمسك بـآراء الأئمة والتعصـبات المذهبيـة. أو العجز عن التميـــيز ما بين الحـــديث الـــذى لا يعتد به – والحديث الذى يعتمد عليه. وهذه كلها تـؤدى إلى إنحراف فى مجال الـدعوة الإسـلامية والسـلوك الإسلامى لا يقل عن الانحراف فى مجال الحيـاة الدنيا والاستسلام لشهواتها ونزواتها.

من أجل هـذا كـان من الضـرورى أن توجد جهادية الإسـلام أداة لمواجهة هـذه الانحرافـات. وقد أوجــدتها فى "الأمر بــالمعروف والنهى عن المنكـــر" بحيث يجد كل واحد من يعرفه بالخطأ أو الضـعف الــذى ينســاق إليــه، وقد يكــون هو نفسه ممن يقومــون بهـذا، وفى الــوقت نفسه ممن يحتاجون إليه.

ولا يجوز أن يفوتنا دلالة التعبير القرآنى عن "المعـروف والمنكـر" فقد كـان يمكن أن يقـول الحلال والحـــــرام أو الحسن والســـــيئ ولكنه استخدم تعبيراً يمثل فى دلالته جانبا من الأعجاز القـــرآنى لأنه فى الـــوقت الـــذى يبعد فيه عن متاهـــات القضـــايا الموضـــوعية، فإنه لحظ ما يفشى بين الناس وما يحكمـون عليه بمعـاييرهم من أن هـذا معـروف يمارسـونه ويتقربـون إلى الله به وأن هـذا منكـراً يعزفـون عنه ولا يـأتون منه شيئاً. فالأمر المحقق أن هذا الشـىء أصـبح معروفاً سواء كان حسـناً أو سـيئاً، ولا يمـار أحد فى هذا لأن الدأب اليومى فى التطبيق يثبته...

والأمر بــــالمعروف والنهى عن المنكر هى الأداة الشعبية ليصلح المجتمع بعضه بعضاً بحيث تستمر الجهادية الإسلام وتسير دون إنحراف.

وقد عنى القرآن الكريم بالأمر بــالمعروف والنهى عن المنكر عناية جعلته يقدمه فى إحدى الآيات على كل شىء إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، كما أنه فى آية أخرى جعل الأمر بــــالمعروف والنهى عن المنكر مــــبرراً أفضلية أمة المسلمين.

- ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾. {104 آل عمران}..
- ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. {110 آل عمران}..
- ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. {114 آل عمران}..
- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. {71 التوبة}..

وللأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإيكاله إلى المؤمنين دلالة أخرى هى عمق التكافل والتكامل فى المجتمع الإسلامى. وأن هذا المجتمع هو كما قال الرسول – كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.. فلا يملك الفرد المسلم عندما يرى منكراً ممارساً ومعروفاً مهملاً إلا أن يتحرك بطريقة لا إرادية كان عمق التكامل فى نفس المسلم أوجد أداة تتحرك لا إراديا وتجعله يندفع للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وإذا حال حائل دون ذلك فإنه يحس أنه حرم ما وجب عليه، فهو صورة من تفاعل المقتضى الاجتماعى مع الإرادة الفردية.

ويـــدخل فى الأمر بـــالمعروف والنهى عن المنكر كل عالم العلاقات الفسيح وما يعـرض له من تطـــورات، ســـواء فى ذلك ما بين الرجل والمرأة، العامل وصاحب العمل، الفرد المحكوم والجهـاز الحـاكم. وعنـدما أعطت الآية 71 من ســورة التوبة المؤمنــاتِ حق الأمر بــالمعروف والنهى عن المنكر جنبـــاً إلى جنب المؤمـــنين، فإنها أعطتهن "كـارت بلانش" لولـوج كل أبـواب العمل العـام بحيث لا تقل مسـئولية المـرأة عن الرجل فى هذا المجال.

وتعبير "المعـروف" و "المنكـر" دون تحديد يمكن أن يجعل إطار ذلك شـاملاً لكل معـروفٍ ولكل منكــر. وهـذا ما يجعل تطــبيق ذلك أمــراً يتطلب كياسة وتعــاملاً مع كل حالـــة، أو مع كل صـنف من النـاس، وملاحظة الـوقت والظـروف إلى آخر ما ينبغى أن يلاحظه كل آمر بـالمعروف ناه عن المنكر حتى لا يسىء القيام بهذه المهمة النبيلة بحيث يولد من المنكر المنهى عنه منكــرا أكبر مما أراد القضـاء عليـه.. وهـذا أمر لم يغب عن فطنة الذين كتبوا فى هذا الموضوع فوضعوا ضــوابط عديــدة لـه. فلا تجــوز الممارسة ما لم يكن المعروف المـأمور به أو المنكر المنهى عنه معروفاً صريحاً ومنكـراً خالصـاً ولا يكـون هنـاك ريب أو شك فـإذا كـان هنـاك ريب أو شك فمن الــواجب الـتريث. كما يجب أن يكـون الأسـلوب مهذباً رقيقـاً وقد قـال الله تعـالى عن الرسـول ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾. وأوحى لموسى وهـــارون أن يأتيا فرعـــون وأن يقولاً له قولاً لينا فكيف يكون الحـال بداعية من عامة النــاس. إن الأمر بـــالمعروف والنهى عن المنكر قد يكــون بابتســامة أو قد يكــون بالتحية

والســلام كما قد يتعــدى "الأمــر" إلى العمل كإعانة الضــعيف ومســاعدة المــريض وإنقــاذ مشـرف على الهلاك. ويجب أن يلحظ دائمـاً أن هناك رخصاً وتيسيرات، كما أن صغائر الذنوب لا تستحق أن نقيم لها أمـراً وتهيـاً، لأن الله تعـالى يتجاوز عنها، ولأن سـلم الأولويـات يقتضى البـدء بالأهم قبل المهم، وليس من الصواب فى شىء أن نبـدأ بـأمر ضـئيل الأهمية ونهـدر ما هو أكـثر أهمية..

وقد جاءت النصوص القرآنية كلها مقصورة على "الأمــر" ولكن الحــديث المشــهور عن "تغيير" المنكر باليد، فـإن لم يسـتطع فبلسـانه، فـإن لم يسـتطع فبقلبه وهـذا أضـعف الإيمـان، أعطى مؤشـــراً اخطأ الكثـــيرون فى فهمه وتطبيقه، وأوجد من "المنـاكر" ما يفـوق ما أريد درؤه فـإن اسـتخدام اليد أمر شـديد الخطـورة. ويمكن أن يصبح صورة من التطاول على الناس وعلى من يمارسه أن يقـــدر المســـئولية، ويتحملها. ولا يجوز بصفة عامة ممارستها إلا فى حالات الضرورة القصوى.

وفى ثلاثينــات القــرن العشــرين تملكت الحماسة لفيفا من أعضـــاء "مصر الفتـــاة " للقضاء على الحانات فداهموا عدداً فيها ودمروا مقتنياتهـا، وقبض البـوليس على الـذين قـاموا بذلك وقدموهم للمحاكمـة، وفى هـذه المناسـبة أرسل الإمـــام حسن البنا رحمه الله خطابـــاً مفتوحـاً للسـلطات نشـرته مجلة الإسـلام فى العـــدد 49 الســـنة الســـابعة الصـــادر فى 17/2/1939 ص 6 أســـتنكر فيه هـــذا الفعل {تدمير الحانات} والطريقة الـتى تم بهـا، ولكنه

في الـــــوقت نفسه وجه نظر الســــلطات إلى المعـانى الموضـوعية الـتى دفعت بالشـباب إلى هذا العمل، واعتقد أن مسلك الإمام البنا هذا هو المسـلك الأمثل من زعيم إسـلامى كبـير يقـدر كافة الأبعاد والعوامل.

وجاء فى هذا الخطاب..

"لست أُقر أحـــــــداً على أن ينتقض على القانون ولست أدعو إلى العدوان فى آية صـورة من صـــوره. فقد نهانا القـــرآن عن العـــدوان، ولكـــــنى أعتقد أن عناصر الجريمة فى هــــذه القضية مفقـودة تمامـاً والقصد الجنـائى منعـدم تماماً فليست بين هؤلاء الشباب، وهذه الجانـات وأصحابها صـله تحملهم على الانتقـام والأجـرام، وإنما حملهم على ذلك دافع شـــريف جــــدير بالتقـدير هو فى الواقع مسـاعدة للقـانون على أداء مهمتـــه، وهى محاربة الجريمة والقضــــاء عليها، وسد المنافذ التى يـدخل منها المجرمـون إلى انتهاك حرمة القانون" انتهى..

وفى الســبعينات شـــهدت مصر انتشــــار ظـــاهرة النهى عن المنكر خاصة فى الصــعيد، وبين طلبه جامعتها ووصل الأمر إلى حـرق أندية الفيديو، بينما كـان طلبة الجامعة يترصـدون لكل من يسير مع سيدة ويطالبونه بإثبات علاقته بهـا. كما كانوا يوقفـون المحاضـرات بمجـرد أن يرفع الآذان..

وأخـيراً سـمعنا فى أبريل عـام 2000 عن اعتــداء بعض الشــباب على فتــاه كويتية غـــير محجبة فضربوها، وقصـوا شـعرها.. مما كـان له أسوء الأثر.. فى المجتمع الكويتى.

وفى المجتمع الحـــديث الـــذى بـــنى على التنظيم، والـــذى يعـــنى بالعمل العـــام، وإن لم يهمل العمل الخـــاص، يأخذ الشـــكل المنهجى والمنظم للأمر بـــــالمعروف والنهى عن المنكر شـــــكل التنظيمـــــات الأهلية فى المجتمع كالجمعيـات والروابط والهيئـات الـتى تعـنى كل هيئة منها بجـانب من جـوانب الأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر وإن لم يقضى هـــــذا على الـــدور الفـــردى الـــذى هو فى الحقيقة حجر الأساس فى العمل الدينى.

ونحن لا نكتب هنا عن الأمر بـــــالمعروف والنهى عن المنكر إلا باعتباره معلماً من معـالم الطبيعة الجهادية للإســـلام، ومن ثم فقد يكفى هذا، أما من يريد التوسع فهناك كتب عديدة منها ما أصدرناه بعنوان "تفسير حديث من رأى منكم منكراً الخ...

6 – المقاصة...

"إن الحسنات يذهبن السيئات"

يعلم الله تعـالى الـذى خلق الإنســان وهو أقـرب إليه من حبل الوريد ما يـتردد فى جنبـات النفس وأطواء الضمير. إن الإنسان مهما حـاول ابتغـاء الخـير وتجنب الشـر، فإنه لا يسـلم من الخطأ أو ما يـؤدى إليه القصـور، كما لا ينجو من خطيئات يقع فيها بحكم الضـعف البشـرى – لأن الإنسان ليس معصوماً. وقد قال حديث "كل بنى آدم خطأون وخير الخطائين التوابـون" واعـترف القرآن بضعف الإنسـان فقـال: ﴿وَخُلِـقَ الإنسَـانُ ضَـعِيفًا﴾. {28 النســاء}.. ﴿إِنَّ الإِنسَـانَ خُلِـقَ هَلُوعًا﴾. {19 المعـارج}.. وأشـار القـرآن إلى

ضعف بنى آدم الموروث عن أبيهم الذى قال عنه القرآن ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ .﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾. {115 طه}.. لهذا فإن الإسلام لا يستبعد أن يقع المؤمن فى خطأ أو يتورط في معصية، ولكن الإسلام ينتظر ممن فعل ذلك أن يندم أو يتوب أو يغير من ذلك بطريقة ما. وقد يفضل الإسلام من يذنب فيستغفر على من لا يذنب ولا يستغفر، لأن خطأ الأول قاده إلى الاستغفار أى ذكر الله تعالى وسؤاله الصفح وقبوله التوبة وهذه كلها من الأفعال التى تصلح ما أفسدته الخطيئة بل وتتجاوزها فلذلك قال حديث "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء، بقوم يذنبون ويستغفرون فيتوب الله عليهم". فليس السيئ أن يخطئ الإنسان، ولكن السيئ أن يصر على الخطأ أما إذا أقلع عنه واعترف به واستغفر الله. فإن الله يغفر له. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ {135 آل عمران}.

ووضع الله تعالى فى قرأنه أسلوب المقاصة. فمن يعمل سيئة ثم يتبعها بحسنة فإن الحسنة ستمحو السيئة. وستكسب له أجراً ومن هنا قال "إن الحسنات يذهبن السيئات" "ويدرءون بالسيئة الحسنة" "واتبع السيئة الحسنة تمحها".

واستعراض هذا يجلى الأعجاز فى المعالجة القرآنية لما يثور فى النفس البشرية من عناصر القوة والضعف وما يصدر عن ذلك ويتفاعل

بعضه مع بعض كـأمواج البحر الـتى تدفعه يميناً وشـمالاً، ويظهر الحيـاة مسـرح جهـاد وكفـاح.. تمثل فوقه معـــارك الخــــير والشر والانتصـــار والانهزام مع وجـود قـوارب النجـاة الـتى تحـول دون أن يبتلع البحر الناس ويطـويهم فى أعماقه البعيـدة.. وأنها تكفل للمـؤمن أن يـأوب شـاكراً حامداً لأن الله تعالى أفسح له سبل النجاة ولأنه يكافئ عن التوبة من ذنب بأضعاف أضـعافه فهو وإن كان جندياً شاكى السـلاح متحفـزاً للحـرب، فإنه من ناحية أخـرى يرتع فى بحبوحة من كـرم الله وصفحه ومثوبته.

لقد عسر على الفقهاء وهم رجـال التقـنين والتحديـد، الأبيض والأسـود.. أن يسـتوعبوا هـذا التفاعل الـديناميكى فى الخــير والشـر، وهــذه المعركة الـتي تحمل النصر والهزيمة فـأرادوا أن يقيمـوا سـداً يحمى الحلال من تسـلل الحـرام. وسموا ذلك "سّـد الذريعـة" وهى طريقة تختلف كل الاختلاف عن طريقة المقاصة الـتى وضـعها القـــرآن وحبـــذها الرســـول والـــتى تعـــبر عن ديناميكية الإسلام وتفاعله. ويعود النقص فى سد الذريعة إلى أنها اســـتبعدت عامل المقاومة فى نفس المــؤمن، وافترضت استسـلامه للأغـــراء بمجرد تلاقيه فأرادت حمايته بأى طريقـة، وكأنها أرادت اقتلاع الأعنـاب حـتى لا يعصـرها الإنسـان خمـراً... واحتبـاس النسـاء فى الـبيوت حـتى لا يفتن بهن الرجال حتى وإن كان هناك أمر صريح من الرسول "لا تمنعـوا إمـاء الله مسـاجد اللـه" فقد قالوا لو شاهد رسـول الله ما فعلت النسـاء لما أباح لهن الخروج ولأمر بـالقرار فى الـبيوت. وهو افتيات صريح على الرسول..

القرآن الكريم يعـرف أن المحـارب شـاكى السلاح الذى يحرص كل الحرص أن لا يهـزم فى موقعة فاصـــلة، قد يســـاقط منه ما يخفف عنه ويجعله أكفأ فى القتــال، ولا يعد هــذا نقصــاً أو تفريطاً وإنما هو تطبيق لحساب الأولويـات، وقد اعتــبر الرســول خالد بن الوليد كــراراً لا فــراراً لانســحابه الحكيم بالمســلمين فى موقعة مؤتة ومنحه لقب "ســيف الله المســلول". ومن هنا أوضح لنا القـرآن الكـريم أنه يتجـاوز عن اللمم، وعن الخطأ للذين أثبتـوا صـدقاً وعزمـاً.. ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُـوا وَنَتَجـاوَزُ عَنْ سَــيِّئَاتِهِمْ﴾. {16 الأحقــاف}.. ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُــونَ كَبَـــائِرَ الإِثْمِ وَالْفَـــوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِـــبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. {37 الشورى}..

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُـونَ كَبَـائِرَ الإِثْمِ وَالْفَـوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِـعُ الْمَغْفِـرَةِ هُـوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَـــأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُـــونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾. {32 النجم}..

وهـــذه الآيـــات توضح أن فـــارس الجهـــاد الإسلامى ليس هو المـبرء من الخطـأ، إن عملية الجهـــاد لابد وأن تثخنه بـــالجراح. ولابد أنه وهو يتقدم ويهـاجم أن يعـثر مـرة أو مـرتين. دون أن يؤثر هذا على مسـيرته، أو ينـال من روحـه، وهو يعلم أن عليه أن لا يبدد جهده فى الصـغائر، وأن يدخرها للمعركة الكبيرة..

7 - الهجرة

كملاذ أخير عندما يضيق الخناق:

يعرض القـرآن حرصا على بقـاء المؤمـنين، وعلى اسـتمرار الإيمـان، الهجـرة كملاذ أخـير عنـدما يضـيق الخنـاق على المؤمـنين وهـذا ما يحدث عندما يجد المـؤمن نفسه وهو مجـرد من كل وسـائل الـدعوة بحكم ما فرضـته القـوى المعادية من وسـائل القمع والكبت والملاحقة والتجسس.. فما أن يجتمع ثلاثة مثلاً حتى يمكن القبض عليهم لأنهم تجمعوا تجمعاً غـير قـانونى للتـآمر على نظـام الحكم! وعندئذ يجد المـؤمن نفسه كالجواد المعطل..

فأمسى لا يطال له فيرعى ولا هو فى العليق ولا اللجام

فليس هو فى السـجن والمعتقل يُعـذب ويقابل ذلك بالصبر والثبـات، وليس هو بـالطليق الـذى يسـتطيع أن يقـوم بالـدعوة لمقتضـيات إيمانه كتطـبيق قيم الشـريعة من عـدل وحرية ومسـاواة أو ممارسة لأمر بـالمعروف ونهى عن المنكـر. إزاء هـذا الحصـار الـذى يحـول دون ممارسة أدنى درجـات الجهـاد، شـرع القـرآن للمؤمن الهجرة كمبدأ فقال:

- ﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. {97 النساء}..

- ﴿وَمَنْ يُهَـاجِرْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ يَجِـدْ فِي الأرْضِ مُرَاغَمًا كَثِـيرًا وَسَـعَةً وَمَنْ يَخْـرُجْ مِنْ بَيْتِــهِ مُهَــاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُــولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْــهُ الْمَوْتُ فَقَـدْ وَقَـعَ أَجْـرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَـانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. {100 النساء}..
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُــوا وَهَــاجَرُوا وَجَاهَــدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَــرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُــهُمْ أَوْلِيَــاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُـــوا وَلَمْ يُهَـــاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَـــيْءٍ حَتَّى يُهَــاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنصَــرُوكُمْ فِي الـــدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْـــرُ إِلا عَلَى قَـــوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُـونَ بَصِـيرٌ﴾. {72 الأنفال}..

وطبق الرسول هذا المبدأ ثلاث مرات على الأقـل. فـأمر فريقـاً من المؤمـنين بـالهجرة إلى الحبشة "فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحـد.." ثم دفع بفريق آخر إلى الهجـــرة للحبشة نفســـها، وأخيراً هـاجر هو وأبو بكر إلى المدينـة. وتقـاطر المسـلمون للهجـرة إلى المدينة بعد ذلك بحيث أصبح تعبير "المهاجرين" يماثل تعبـير "الأنصـار" أى أنهم أصـبحوا كتلة المؤمـنين من الفـترة من هجـــرة الرســول حـــتى فتح مكة عنـــدما أعلن الرسول أن ليس هنـاك حاجة للهجـرة بعد الفتح "لا هجرة بعد الفتح" ولكن جهاد ونيـة" وتـواترت الآيات فى مديح المهاجرين وسـجلت لهم الرضا والتوبة والغفران..

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. {218 البقرة}..
- ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾. {195 آل عمران}..
- ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(71) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(72) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ(73) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(74) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنْكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ

بَعْضُـــهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَـــابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾. {75 الأنفال}..

- ﴿وَالسَّـابِقُونَ الأَوَّلُـونَ مِنْ الْمُهَـاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَـانٍ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُــوا عَنْـهُ وَأَعَــدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْــرِي تَحْتَهَا الأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَـدًا ذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ﴾. {100 التوبة}..
- ﴿لَقَدْ تَـابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَـاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْـرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَـادَ يَزِيـغُ قُلُـوبُ فَرِيـقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَـابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. {117 التوبة}..

وقد كانت هجرة الرسول فتحاً مبيناً وحـدثاً فى تاريخ الإسلام استحق أن يبدأ به تاريخه. كما أن هجـرة كثـير من الأفـراد أو المجموعـات إلى دول قريبة أو بعيدة كـان إيـذاناً بـدخول الإسـلام إليها. وهكذا فإن الهجرة لم تحرر المهاجرين من أسر حكــامهم الظلمة الـذين حـالوا بينهم وبين حرية العبــــادة. بل إنها أيضـــاً جعلت هـــؤلاء المهــاجرين ســادة فى بلاد جديــدة ومكنهم من نشر الإسـلام فيها بل لقد توجد هجـرة للـدعوة، وليس للمهـاجرين. وقد هـاجرت دعـوة الإسـلام إلى المدينة ففتحتها قبل أن يهــاجر المســلمون إليها.

وبـالطبع فـإن للهجـرة مشـاقها فهى تعـنى التخلى عن البيوت والسكن والمتـاع والعتـاد وما يملكونه من أراضى أو عقـــــــارات.. ثم العيش

تحت سـماوات جديـدة وفـوق أرض جديـدة قد يختلف مناخها وناســـها، بل قد لا يتحـــــدثون العربيـــة. ويكـــون عليهم التـــأقلم معها وقد يتعرضــون لمقاومة مجموعــات معينة ويكــون عليهم أن يكافحوا ويكـدوا حـتى تثبت أقـدامهم. والحق أن هذه المشاق كانت من الأسـرار الـتى جعلت القـــرآن يمتـــدح المهـــاجرين، ويقـــدر تضحياتهم، ويكفل لهم أعظم الثواب.

وأســـلوب الهجـــرة يوضح أن الجهـــاد فى الإسـلام جهـاد متفتح ليس مغلقـاً وأنه إذا أعتمد على الإرادة والتحكم فى النفس، فإنه يســتخدم العقل للبحث عن الوسائل الـتى تمكن المسـلم من ممارسه جهـاده عنـدما يضـيق عليه الخنـاق فى بلـده فالجهـاد الإسـلامى لا يقف فى سـبيله شىء، وهو يتوصل إلى الوسـائل الـتى يغلب بها كل المعوقات والمثبطات.

* * *

ليس هذا هو كل دستور الجهـاد الإسـلامى. لقد تحدث الرسول عن الإيمان كبضع وسبعين شـــعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى من الطريق. وفيما بين هـذين مجـال أى مجـال، وفسحة أى فسحة.

وعـــرَّف الإســلام المســـلمين على عـــالم الحلال والحـرام وغـرس فيهم حاسة تستشـرف الحلال وتقبل عليه وتتنسم الحـرام فتـدبر عنـه. كما عـــرف المســـلمين بالفضـــائل ومكـــارم الأعمال..

كـــان يمكن أن نتحــــدث عن الحلم عند الغضب أو الصدق عند القول. ومعروف أن رجلاً

سـأل الرسـول أن يوصـيه فقـال الرسـول "لا تغضـب" ولآخر "لا تكـذب" كما قـال لثـالث "لا تسأل الناس شيئاً".

وثابت أيضاً أن الرسـول فضل إصـلاح ذات البين على الصلاة والصيام والحج والزكاة..

وكـان يمكن أن نتكلم، وينفسح المجـال للحديث عن العمـل.. الـذى هو مصـداق الإيمـان ومبرر الثواب والعقـاب فى الآخـرة وما فى هـذا العمل من إضـافة للبشـرية، وتنمية للشخصـية وقضـاء للحاجـات، وضـرورة إتقانه وإعطـاء كل جزئية فيه حقها.

كما كـان يمكن أن نجـرى مقارنة ما بين المجاهد الإسلامى والفارس الأوربى كما تعرضه لنا وقائع التاريخ الرومانى ووقائع التاريخ الأوربى الوسـيط، وكيف أن المجاهد الإسـلامى يجـرى معركته مع نفسه الـتى بين جنبيه أولاً. ثم هو يتجرد من كل صفات الزهو والغـرور والاسـتعلاء التى تغرسـها فى نفس الفـارس الأوربى عتـاده وسلاحه، وهدف فروسيته..

وقد أجـرى التـاريخ بالفعل هـذه المقارنة عنـدما جابه مجاهـدو الإسـلام فرسـان كسـرى وقيصـر. وأثـاروا أول الأمر السـخرية بأزيـائهم الرثة وعتـادهم الخفيـف، ولكنهم كسـبوا الاحترام.. عندما بـدأت المعركة وظهر أن سـلاح النفس أقوى من أى سـلاح آخر يمكن أن يحمى الجسم، ولكنه لا يكفل له الإقدام والاستماتة.

إن المجاهد الإسـلامى لا يريد علـواً فى الأرض أو استكباراً، ومثله الأعلى هو محمد الذى دخل مكة ساجداً على قتب بعـيره، وليس القائد

الرومانى الـذى يسـير فى مـوكب النصر تتقدمه العربات التى تحمل الغنـائم المكدسة والأسـرى فى الأصفاد.

* * *

في مقدمة هـذا الكتـاب أشـرنا إلى اللبس الذى وقع فيه المجتمع الإسـلامى ما بين الجهـاد والقتال وكيف أن عوامل عديدة أدت لإعلاء كفة القتـال على الجهـاد وأشـرنا إلى الآثـار الوخيمة التى نتجت عن ذلك لأن الجهاد فى حقيقته يمثل منظومة الخلق الإســـلامى "وبقـــدر ما يحسن فهمها وتطبيقها بقدر ما يتقـدم المجتمـع، وبقـدر ما يســاء فهمها ويهمل تطبيقها بقــدر ما يتخلف المجتمع. ولا يمكن للقتـال أن يحل محل الجهـاد أو أن يجــدى جــدواه، وضــربنا المثل على ذلك الدولة العثمانية التى كانت قتـالاً ليس فيه جهـاد ولــذلك ذهبت المــدافع بما جــاءت به الســيوف وفقد حكمها كل القيم الإســلامية فتبــدد بعد أن حنت على العــالم الإســلامى وأدت إلى دمــاره. كما ضربنا المثل بانتشار التصوف الذى كان فى حقيقة الحـــال الفـــرار من المجتمع والعجز عن مجابهة مشــاكله إلى مجتمع آخر أســطورى من إبـداع أصحابه يمكن أن يجـدوا فيه بـديلاً يحقق لهم أحلامهم.

وسنشــير هنا إلى لبس داخل إطــار الجهــاد نفسه هو اللبس ما بين الجهــاد فى الحياة الدنيا، والجهاد للحياة الآخرة. وما وقر فى نفــوس المســلمين من أن الجهــاد الحق هو الجهــاد ضد الــدنيا. وهو التركــيز على العبــادات. وأن علينا أن نشــترى الحياة الآخرة بالـدنيا وهـذا فهم سـقيم أدى إليه

التـــدهور الســـريع للمجتمع الإســـلامى منذ أن تحولت الخلافة الراشـدة إلى مُلك عضـوض وما فرضه هــذا الحكم الاســتبدادى من قيــود على حرية الفكر وحرية العمل. بحيث أصـبح المجـال الوحيد أمام الفقهاء والشيوخ هو مجال العبادات الذى صالوا فيه وجالوا..

إن هـــذا الانفصـــام ما بين الـــدين والدنيا والعجز عن تحقيق التواءم بينهما هو مأساة الجهاد الإسلامى.

لأن الإسلام وقد أراد أن يكون منهج حياة لا يمكن أن يعادى الحياة الدنيا..

ولأن الإسلام حـتى وإن جعل الحيـاة الـدنيا الوسيلة والحياة الآخرة هى الغايــة. فلابد من أن يوجد اتساق ما بين الوسيلة والغاية ولا يمكن أن نطلب غاية شريفة بوسيلة دنيئة.

وحقا أن القـرآن الكـريم فى آيـات عديـدة حــذر من الــدنيا.. وذكرنا بــالآخرة.. وذم الأولى وحمد الثانية..

ولكن أى دنيا ذمها القرآن ؟.

إنها دنيا الأثـــرة. والأنانيـــة، دنيا الضـــعة والخســـــة. دنيا التهــــافت على الشـــــهوات والانصـــــــراف عن المـــــــروءات.. دنيا الجهل والإســـتخذاء للحكـــام والغفلة واتبـــاع الأبـــاء والأســلاف، دنيا تتجــرد من القيم الــتى جــاء بها القرآن من حرية أو عدل أو مســاواة أو إخــاء أو محبة أو رحمة الخ...

وأى آخرة أرادها القرآن ؟..

هل هى مجـرد الصـلاة، والصـيام، والـدعاء والتهليل والتسبيح ؟.

أن الآخرة التى أرادها القرآن تقوم على ما قدمته الدنيا من العمل الصالح، والجهـاد الـدائب فى مقاومة الشـــهوات وتحقيق المـــروءات.. والعمل فى مجـال التجـارة والصـناعة والزراعة حـــتى يتحقق للأمة الكفاية وحـــتى تسـتطيع أن تســـلح لنفســـها، بـــالخلق القـــوى ثم بمختلف الأسلحة التى تكفل لها الكرامة.

فليس هنـاك تعـارض ما بين الحيـاة الـدنيا والآخـرة، والحيـاة الـدنيا هى مزرعة الآخـرة وما نزرعه فيها نحصـــده فى الآخـــرة. وســـيكون الحساب والعقاب فى الآخرة على ما كنا نعمل.

وقد تقبل القرآن قول من قال ﴿وَابْتَـغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الـدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَـادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِـــــــدِينَ ﴾. {77 القصص}..

وقد صدق كلام الرسول كلام اللـه. فعنـدما أعجب الصحابة بشاب جلد وقالوا لو كـان جلـده فى سبيل الله صحح النـبى ﷺ لهم هـذا المفهـوم "لو كـان يسـعى على أبـوين شـيخين فإنه فى سـبيل الله أو يسـعى على نفسه يعفها فهو فى سـبيل اللـه" فسـبيل الله ليس مقصـوراً على الصلاة والصيام.

وعنـدما أثـنى بعض المؤمـنين على أحـدهم لأنه يصوم النهـار ويقـوم الليل سـألهم الرسـول فمن يعد حاجته قالوا كلنا قال كلكم خـير منـه!! وندد بالـذين يزيـدون فى العبـادة ويزهـدون فى طيبـات الحيـاة الـتى أتاحها الله للنـاس ونهى

الذين ينذرون الحج مشيا أو يتعرضـون للشـمس بفكرة أن تحمل عذابها يزيد فى الثواب !!.

والصحابة أنفسهم، الذين كان الرسـول بين ظهرانيهم وهو رسول الله المصـطفى ما تركـوا أعمـالهم ليكونـوا بجانبه بل كـانوا يمضـون إلى الأسواق للشراء والبيع أو ممارسة الحــرف. ولو كـان الأمر أمر قـربى فحسب لوضـعوا أنفسـهم عند قدميه وما تركوه أبداً...

* * *

للأســف، ولعوامل عديــدة أعتــبر الجهــاد ممارسة للعبادات الأخروية وليس عملاً وسـلوكاً فى المجـالات الدنيوية وسـار هـذا حـتى النهاية فوجد الذين يحسـنون "المـوت فى سـبيل اللـه" ولكنهم لا يسـتطيعون الحيـاة فى سـبيل اللــه.. وكــان هــذا فى حقيقته نهاية للجهــاد الــدنيوى والاســتغراق فى الجهــاد الأخــرى مما أدى إلى فساد الاثنين معا.

الباب الثانى

القتال فى الإسلام

كانت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، إيذاناً بفتح عهد جديد فى الدعوة الإسلامية. عهد تكون فيه سيدة بلادها تحكم بالقرآن وتدين للرسول بالطاعة، وكان هذا بالطبع يختلف اختلافاً تاماً عما كان عليه عهد مكة وملاحقة قريش للرسول وحيلولتها ما بينه وبين الناس ليبلغ دعوته..

واصطحب تغيير البيئة بتغيير وسيلة العمل فبعد أن كانت فى مكة الجهاد النفسى فإنها أصبحت فى المدينة القتال المسلح لأن الصراع أصبح يقوم بين كيانين كيان الإيمان بالمدينة وكيان الكفر بمكة ومثل هذا الصراع يطلق عليه الحرب، أو القتال..

كان الانتقال من الجهاد بصبره، وهجرته، ومقاصته، إلى القتال بما يعنيه من قوة ورباط الخيل وسلاح انتقالاً طبيعياً. رغم ما فى ذلك من اختلاف، كان مختلفاً عن سابقه ولكن مؤتلفاً مع لاحقه وكان القرشيون أنفسهم هم الذين بلغوا به هذا التطور عندما حاكوا مؤامرتهم على الرسول التى كادت أن تتم لولا هجرته.

النقطة الهامة التى فاتت معظم الكتاب الإسلاميين أن هذا الانتقال كان بالدرجة الأولى تطوراً فى المواقف تطلب وسيلة جديدة للدفاع عن مبدأ قديم وهو المحور الذى تدور عليه العقيدة إلا وهو حرية العقيدة، فلم يسن القرآن القتال كمبدأ. إنه سن الجهاد.

أما القتـــال فليس إلا وســـيلة تطلبها الـــدفاع عن المبـــدأ عنـــدما تطلبت، بل وفرضت الظروف إستخدامه..

وهذه نقطة هامة لأن القرآن يقدس الحياة، ويقدس حق الفرد فيها. وأن لا تنتزع منه إلا بناءً على أسـباب محـددة وضـعها على وجه التعـيين. وإذا كـــان الله تعــــالى قد كتب فى أحد كتبه المقدســة.. ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَـلَ نَفْسًـا بِغَيْـرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. فإن هـــذا يؤكد لنا أن الإســلام ليس **ســيفاً فى الأصل إنه "كلمـــة" جـــاء بها الـــوحى ليقرأها الناس. وعنـدما هـوجم الإيمـان، وهـــدد المؤمنـــون. لم يعد منـــاص من القتــال**، حماية له ولهم، وقد حـــرص القـــرآن الكريم على إيضاح هذه المعانى وصيانتها.

وكما ذكرنا فى المقدمة، فإن هذا التمحيص قد دق على كثير من الكتـاب الإسـلاميين الـذين أخذوا أحكاماً من آيات القتال دون أن يتـبينوا أن آيـات القتـال نفسـها تعـود إلى أصل أساسى هو حرية العقيدة والنفس. وأن هذا الأصل هو الـذى قاد إلى موقف معين هو تبنى القتال. وهو سبب مشـروعيته وأن هـذه المشـروعية تفتقد إذا لم تتطلبه حرية العقيدة، أى إذا لم تعد هناك "فتنة" وبالتالى حاجة للقتال.

فالقتال أمر كريه، وقد كان كرها للمؤمـنين لأنه فى حقيقته ليس إلا سـفكاً للـدماء وإهـداراً للحياة وإصابة الآخرين بالعاهات من بـتر الأيـدى والســيقان الخ... ولم يجعل الله تعــالى هـــذه الكـره خـيراً إلا عنـدما يتعلق الأمر بحماية حرية

الضـمير والنفس. فهـذا وحـده، هو الـذى يعطى المشروعية للقتال ويبرره، بل ويجعله خـيراً لأن الاستسلام للحكم الظالم لا يعـنى إلا مزيـداً من الظلم والإذلال. ومن هنا كـــــــانت مقاومته ولو بالقتـال أفضل من الاستسـلام لـه. بـدليل أنه ما أن يلقى من يحارب الإسلام السـلم ويتخلى عن الحرب حتى يستجيب له المسلمون..

الفصل الثالث
المناخ الذى نزلت فيه
آيات القتال

لا يمكن فهم آيات القتال، ولا الشكل الـذى أخذته إلا بالتعرف على المناخ الذى صـدرت عنه – وبسببه – هـذه الآيـات. إن النقلة من مكة إلى المدينة لم تكن نقلة من مكان إلى مكـان ولكنها كانت نقلة إلى مجتمع جديد له صفات وخصائص تختلف كل الاختلاف عن مجتمع قريش.

لقد آمن الأنصـار أعمق الإيمـان، وأسـلموا إلى الرسول الأمر كله ليحكمهم بالإسلام، ولم يكن هنـــاك أدنى شك فى إخلاص الأنصــــار ولا حكمة وموضوعية وكمال القيادة النبوية المعززة بـالوحى. ولكن القضـية لم تكن بهـذه البسـاطة. فلم تكن النقلة قطيعة بين عهد مـــــدنى وعهد مكى، ولكنها كانت تطوراً فى ميزان القوى. من عهد مكى لا يـزال موجـوداً إلى عهد مـدنى بـدأ فى الظهــــور. لأن المشــــركين أى أهل مكة – تملكهم الغيظ عنـدما اسـتطاع النــبى أن يفلت من قبضــتهم وأن يهــاجر ليجد أنصــاراً يحمونه ويضعون سيوفهم فى خدمته وطوع أمــره. ومن ثم عقد المشركون العـزم على ملاحقته قبل أن يستغلظ أمــره.. ورأوا أن من الضـرورى إصـلاح خطـــأهم عنـــدما أفلت منهم إلى المدينة خاصة وأن المدينة يمكن أن تهــاجم قــوافلهم التجارية التى كانت عماد حياتهم.

وكـــان فى المدينة نفســـها جالية قوية من اليهـود اسـتوطنوها منذ عهد طويل وأقـاموا بها

الآطـــام أى الحصـــون وســـيطروا على التجـــارة والحـــرف فيهـــا. ومع أن الرســـول حـــاول أن يسترضى هـــؤلاء اليهـــود **فعقد فى الأيـــام الأولى لدخوله المدينة اتفاقـــاً يعطيهم حق المواطنـــة، ويجعلهم مع المســـلمين "أمة واحـــدة لليهـــود دينهم وللمســـلمين دينهم"** إلا أنهم نقمـــوا أن لم يكن هـــذا النـــبى العظيم منهم، وأن يخـــرج إطـــار النبـــوة من بـــنى إســـرائيل إلى بـــنى إســـماعيل. فضـــلاً عن أن الأخوة الإسلامية الوثيقة بين الأنصار قضت على سياسة "فرق تسد" التى كان اليهـــود يتبعونها ما بين الأوس والخـــزرج ويحولـــون بـــذلك دون اتحـــادهم. ومن ثم فقد وقف هـــذا المعســـكر موقف المتربص الذى إذا بـــدت له فرصة القتـــال قاتل. وإذا لم يجد لاذ بوسائل من النفاق وإدعـــاء الحيلة، أو نصب المكائد ودس الدسائس.

وكـــان فى المدينة نفســـها، ومن الأنصـــار أنفسهم، قلة تلتف حـــول زعيم الخـــزرج عبد الله بن أبى الـــذى كـــادت الأنصـــار تتوجه ملكـــاً قبل ظهـــور الرســـول. فلما جـــاء الرســـول تبـــدد هـــذا الأمل وضاعت على بن أبى فرصته فى أن يكون ملكـــا. ولم يكن لعبد الله بن أبى رغم منزلته الرفيعة اتبـــاع بل إن إبنه نفسه كـــان من خيـــار المؤمنين. ولكن يظل الأمران شخصاً بمثل هذه المنزلة يكن عـــداوة عميقة للإســـلام، لابد وأن يكون لها آثار.

ولم تكن العلاقة بين المهـــاجرين والأنصـــار مشـــكلة، لأن أخـــوة الأنصـــار اســـتوعبت الوضع الجديد رغم أن وضعهم كان أشد الأوضاع حرجـــاً لأن المهـــاجرين شـــاركوهم الأرض وزاحمـــوهم

السكن. وكان هذا وذاك يمكن أن يثير النفوس ولكن أخوة الإسلام وإيثار الأنصار الذى امتدحه القرآن. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. بدد كل الآثار السيئة التى كان يمكن أن يحدثها هذا التطور الجديد. وفى مرحلة لاحقه صحح الرسول وضعية هؤلاء المهاجرين..

مناخ المدينة إذن، رغم حماسة الأنصار، وإيمان المهاجرين. لم يكن صفواً خالصاً. لقد كان فيها أعداء يكتمون عداوتهم ومنافقون يخفون طويتهم.. بينما كان المشركون يعدون العدة لمعركة لابد وأن تقع قربت أو بعدت..

فإذا كان مناخ مكة قد أفرز "دستور الجهاد" فى مقابلة الاضطهاد. بكل مفرداته التى أشرنا إليها فى الفصل الأول، فإن مناخ المدينة كان لابد وأن يفرز القتال لأنه عندما ينشأ صراع بين قوتين متميزتين يكاد يكون كل منهما "دولة" فإن هذا الصراع يأخذ اسم القتال أو الحرب..

وفى الحقيقة كانت القضية أكبر من هذا بكثير..

فلم تكن الهجرة إلا الخطوة الأولى على طريق "ثورة الإسلام" فالإسلام لم يكن دين كهانة كبقية أديان العرب إنه كان الثورة العربية الكبرى التى تحل "الأمة" محل القبيلة، والشريعة محل التقاليد. والله محل الأوثان. ولعل قريش تذكرت كيف رفض محمد المُلك والرأسة عندما عرضتها قريش عليه، فلو كان الأمر أمر رئاسة لقبل محمد وأختصر الطريق، ولكن كانت إرادة الله سابقه أن يجمع محمد

العرب فى أمة واحدة تحمل رسالة الإسـلام إلى العالم، وكان لابد لذلك من حروب تصهر وتـذيب العصــبية القبلية فى أخــوة الإســلام ومواطنة الأمة. بل لقد ظهر أن هذه الحـرب كـان لابد أن تستمر عنـدما تصـورت بعض القبائل العربية بعد وفاة الرسـول أنها تسـتطيع أن تنشق وترتد إلى النظام القبلى، وكان على أبى بكر أن يقــوم بما قام به "لنكـولن" بالنسـبة للأمة الأمريكية بعـده بــألف عــام – الحفــاظ على وحــدة الأمة ولو بالسيف.

وهكـــذا جوبه الإســـلام بضـــرورة وحتمية القتـــال فلم يكن المشـــركون ليتركونـه، ولم يكن اليهـود ليقلعـوا عن دس الدسائس وتأليب الأعـداء الخ... ولم تكن المجموعة القليلة من "الأعـراب" أو اتباع بن أبى الذين أطلق عليهم القــرآن الكريم "المنافقين" ليتركوا الإسلام فى ســلام وما كـــان المســـلمون بالــذين يـــــتراجعون عن دورهم التـــــاريخى والحضارى الكبير.

كــان لابد من الصــدام بين أوضــاع تقليدية قديمة فاســدة، وأوضــاع جديــدة ناهضــة. كـان اللقاء ما بين الإســلام والوثنية هو أول حلقة فى "صراع الحضارات" إذا أصبنا التعبير.

* * *

هكذا جوبه الإسلام بموقف جديد هو القتال فكان عليه أن يعلن تصوره له..

فى آيــات عديــدة أوضح القــرآن أن "دفع الناس بعضهم ببعض" وهو التعبير الـذى كـنى به

القرآن عن القتال هو أحد الضرورات التى يقـوم عليها المجتمع الإنسانى. لأن هذا الدفع هو الـذى يحـول دون اسـتئثار أو تحكم فـرد أو فريق فى الأمر إذا لم يجد من يدفعـه. ومن ثم فإنه مبـدأ أصولى من مبادئ الاجتمـاع الإنسـانى. وقد جـاء التعبير عن ذلك مع صدور الإذن بالقتال الدفاعى فى آيات سورة الحج 39 – 40.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)﴾. ثم جاءت آية البقرة تؤكد هذا المعنى.

وكذلك...

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. {251 البقرة}..

ومن الواضح أن هذا المبدأ يتفق أساساً مع الطبيعة الجهادية للإسلام، وتصور الإسلام للحياة كصـراع ما بين غواية الشـياطين وهداية الأنبيـاء قـدر ما يتفق مع ما أثبتته الوقـائع والتـاريخ عن المجتمع البشرى.

وما ظل هـذا الصـراع يقـوم لـدرأ الفسـاد والغواية ولتحقيق الصـلاح والهداية ويكـون فى حماية العقيدة والنفس فـإن الإسـلام يتقبلـه، بل ويشـجع عليـه. ولكن عنـدما تنقلب الآية فيكـون الصراع فى سـبيل الـثروة أو القـوة أو السـلطة الخ... فإن الإسلام يرفضه وعندما سئل الرسول

عن الرجل يحـارب شـجاعة أو شـرفاً أو حسـباً الخ... قـال من قاتل لتكـون كلمه الله هى العليا فهو فى سبيل الله.

ومن هنا، فإن الهـدف الوحيد المسـموح به للقتال فى الإسلام هو الدفاع عن العقيدة أو عن النفس أو عن المُلك المشـــــروع. أى أنها فى جميع الحــالات حربــاً دفاعية وفى غــير هــذه الحالات فإن الحيـاة الإنسـانية مقدسة ولا يجـوز المساس بها.

هذا بالنسبة لغاية الحـرب والهـدف منها أما عن الوسـيلة الـتى تتخـذها الحـرب فقد وضع الإسـلام تـوجيهين الأول تطلبته طبيعة القتـال. وهو أن الحــــرب جد خـــالص لا يصـــلح معها التراخى، أو التخاذل، أو التهـاون، أو الميوعة لأن أى تخاذل يعنى الهزيمة، أى العار وفقد الشـرف والكرامة.. ثم النفس أيضاً..

من هنا جـاءت توجيهـات القـرآن صـارمة. فهو يســـتحث المســـلمين للقتـــال، ويرفع معنوياتهم، ويوحى ببذل غاية الجهد وأن "يثخنوا" فى العـدو.. لأن نتـائج الاسـتهانة لا تقتصر على الهزيمة، ولكنها يمكن أن تؤدى إلى زيادة سـفك الدماء أما الشدة من البدايـة، فإنها تضـمن نهاية سـريعة وتكـون أكـثر رحمـة. بل يـرى القـرآن الكــريم أن إعـداد العـدة بصـورة جـادة قوية ومـؤثرة يمكن أن يصـرف العـدو عن الاعتـداء وهـذا هو "الإرهـاب" الحميد الـذى يحـول دون نشوب اللقاء ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُـوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

وهذا التوجيه هو سر الشـدة الـتى نلمسـها فى الكثـــير من آيـــات القتـــال، وأى خبـــير فى الحــرب والقتــال إذا لم يحمــدها فإنه يــرى أنها ضرورية ولا مناص عنها وسنشير عند استعراضنا الآيات إلى بعض ملابسات ذلك.

أما التوجيه الثانى فهو أنه جعل أسوأ حالاته هو المعاملة بالمثلٍ بحيث لا يجــــوز اســــتخدام وسـيلة أكـثر سـوءً مما يسـتخدمها العـدو. وهـذا الحد الأدنىٍ يرفقه الإسلام بما يرفع مستواه وما يجعله متفقاً مع القيم الإسلامية، فلا يجوز تدمير أو تحريق أراضى وممتلكـــات ولا يجـــوز اقتلاع أشجار أو الاستحواز على محاصيل أو أقــوات إلا بـــالثمن وما أن تضع الحــــرب أوزارها ويقــــاد الأسرى إلى محبسـهم حـتى يتم التصـرف فيهم على أساس **المن أو الفداء.** وهــذا ما لم يكن يحلم به المهزومــون أمــام الجيــوش الرومانية الذين كانوا يعلمون أن النخاسـين وتجـار الرقيق يســـيرون بصـــحبة الجيش لشـــراء الأســـرى واسترقاقهم.

وقد بينت وصـــية الرســـول ﷺ للجيـــوش المحاربة، وكـذلك وصـية أبى بكر وعمر أن على هذه الجيوش أن لا تقرب النسـاء أو الأطفـال أو الشيوخ، أو الرهبان أو الأدبـار والكنـائس، وأنه لا يجـوز لهم أن يضـعوا أيـدٍيهم على أى شـىء إلا بالثمن وأن لا يذبحوا شيئاً إلا لمأكله.

كــذلك مما يتعلق مع توجيهــات القــرآن أن يتقبل المسلمون كل بادرهِ للسلام ﴿وَإِنْ جَنَحُـوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

قد يجــوز لنا أن نقــدم إضــافة فيما يتعلق بعرض "السلم" أو إبداء بـادرة صـلح. لأنها تـبرز ما ترسب فى نفـوس المؤمـنين بفضل القـرآن وما اقتضاه من ضرورة الالتزام بإيقـاف الحـرب لدى أى بادرة للصلح أو السلم من الآخرين، فقد أرسل أحد المـــوالى إلى أهل حصن يحاصـــره المسـلمون بالأمـان. وفتح المحاصـرون أبـواب حصـــنهم بنـــاء على هـــذا. ورفض قائد الجيش الالتزام بما حرره المـولى. ولكنه كتب إلى أمـير المؤمنين، فأخبره بأن يمضيه **"لأن المسلمين عدول يسعى بـذمتهم أدنـاهم"** وكـذلك ما روى عن تمـرد قـام به بعض سـكان قـبرص فى ولاية عبد الملك بن صـــالح بن على بن عبد الله بن عبــاس فكتب هــذا إلى لفيف من التــابعين يستفتيهم فى نقض عهـدهم أمـانتهم فـرد الليث بن سعد أن لا يسرع لأن أمان أهل قـبرص كـان ساريا لمدة طويلة وما من أحد من الــولاة نقض صــلحهم ولا أخــرجهم من بلــدهم وأنا أرى أن لا تعجل بنقص عهدهم ومنابـذتهم حـتى تتم الحجة عليهم.. وكتب موسى بن أعين وإســـماعيل بن عياش بهذا المعنى وأفتى معظمهم بحفظ العهد ونصحوا الحاكم بالتريث[6].

* * *

كـــان الإســـلام ثـــورة أعمق من الثـــورة الفرنسـية والثـورة الشـيوعية وكـانت مقومـات الثـــــورات فيه على أمثلها فهنـــاك النظرية أو بمعنى أدق العقيدة التى تختلف أو حتى تضاد ما كـان سـائداً من عقائـد.. وهنـاك مشـاركة كاملة

---

6 **(1) استشهد بها فى كتاب حقوق الإنسان للدكتور محمد فتحى عثمان.**

وفعالة من الجمـاهير وهنـاك إرادة قوية لا يقفها الموت نفسه للتغيير. وكانت الثمرة التى حققتها ثــورة الإســلام أبعد مــدى مما حققته الثورتــان الفرنسية والبلشفية لأن ثورة الإسلام خلقت من القبائل العربية المتنازعة التى كانت تفخر بسبق جــواد أو قرابة نسب أو كسب رهــان وقمــار... إلى أمة متماسـكة تحمل الكتـاب والمـيزان إلى من حولها من حضـــارات كســـروية وقيصـــرية، ونظم طبقية تقـــوم على اســـتعباد الجمـــاهير وتسخيرها..

ومع هذا...

لم تعرف ثورة الإسلام مشاهد "الحيلوتين" ولا النسـاء اللاتى جئن خاصة ليتسـلين بمشـاهد الإعـدام، ولا عهد الإرهـاب. ولا وسـائل التخلص من المعارضين ولو بـإغراقهم. ولم تشـهد شـيئاً من ويلات وفظائع الثورة البلشفية ولا إبــادة كل الطبقة الحاكمة وأولادهم ونسـائهم وخـدمهم ولا عشـرة ملايين من صـغار الملاك الـذين رفضـوا تسـليم أرضــهم لأنها مصــدر قــوتهم وعيشــهم فأخـذت منهم عنـوة، كما أخذ كل ما لـديهم من محاصيل وتركوا ليموتوا جوعاً وبرداً وقيل عنهم "كــولاك" أى ملاك الخ... إن شــيئاً من هــذا لم يحدث فى ثورة الإسلام ولا يجاوز قتلى الحروب فى عهد الرسول سواء من العرب المسلمين أو المشركين ألف نفس. كان يمكن أن يضــحى بها فى أحد أحياء بـاريس أو موسـكو.. أيـام الثـورة الفرنسية أو البلشفية دون أن يعلم بهم أحد..

إن الثمن الذى دفعته ثـورة الإسـلام من دماء أنصارها أو دماء أعداءها لم يكن إلا جزءاً ضئيلاً لا يكاد يعتد به مما سـفك

من دمــاء فى الثــورتين. وما ارتكب من فظائع. وما خلفتاه من دمار.

لو جاز أن تقوم ثورة دون دماء لكــانت هى ثورة الإسلام. ولكن تأبى أوضاع المجتمع، ويأبى تمسك ذوى المصـالح المكتسـبة، والمتوارثة من العهـود القديمة أن يتنـازلوا عنهـا. ومن ثم تحتم القتال. وقد تم هـذا بأقل قـدر يتصـور فى ثـورة الإسلام عهد الرسول.

* * *

هنــاك موقف ثــالث لم نتحــدث عنه فيما ســبق وهو الموقف من الآخـــرين. الـــذين لا يحاربون الإسـلام والمسـلمين، ولم يضـطهدوهم أو يخرجـوهم من ديـارهم وهـؤلاء تحكمهم الآية **لاَ يَنْهَــاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَــاتِلُوكُمْ فِي الــدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُـوكُمْ** مِنْ دِيَــارِكُمْ أَنْ تَبَــــــرُّوهُمْ وَتُقْسِــــــطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. {8 الممتحنة}..

* * *

هذا هو ما قاله القرآن الكريم عن "القتال" وحتى يطمئن القـارئ فسنضع تحت أنظـاره كل ما جاء عن هذا الموضوع خاصاً بغايته، ووسـيلته والموقف من الآخـرين ليلم القـارئ بوجهه نظر القــرآن كاملة عن هـذا الموضـوع. ولو اتسع لنا المجال لكان يجب أن نعرض وجهة نظر القـرآن عن مجالات أخـرى قد لا تتصل بطريقة مباشـرة بالقتال – ولكنها تتصل بطريقة غير مباشرة مثل قبول الإسلام للتعددية وإرجاء الاختلافـات ما بين العقائد إلى الله تعالى ليفصل فيها يوم القيامــة. والتركيز على العدل الذى لا يجـوز لشـنأن قـوم

أن يحملهم على أن لا يعدلوا الخ... لأن من يريد أن يجزم برأى القرآن فى موضوع لا يجوز له أن يقتنص آية أو آيتين عن هـذا الموضـوع، بل قد لا يكتفى أن يـأتى بكل الآيـات عن هـذا الموضـوع لأن من المحتمل أن يوجد فى القــرآن الكــريم آيـــات أخـــرى تختلف فى طبيعتها ومعناها عن الآيـات الـتى أوردها فى موضـوعه ويكـون من الضرورى الإلمام بهـا، ويكـون له أن يأخذ بآيـات معينة دون آيـات أخـرى وإن اختلفت فى معناها عن الأولى لأنها فيما يرى الأفضل لا على ســبيل النسخ المزعــوم لأننا لا نــؤمن أن فى القــرآن الكريم ناسخاً ومنسوخاً، ولكن فى القرآن بدائل وسِعه وفسحه وتعددية بحيث يتجاوب القرآن مع التطـورات المختلفة ومع الافهـام المتفاوتـة، ولا يكون هناك حرج على من يمسك بآية رغم وجود آية أخــرى مختلفــة، لأن كل آية تمثل بُعــداً، أو جانبـاً من الحقيقة المتعـددة الأطـراف والأبعـاد. فلابد أن تكون هنـاك آيـات تـأمر بالقتـال عنـدما يقاتل المشركون المؤمنين ولابد أن تكون هنـاك آيـــات تمنع الحــرب ما لم يكن هنـــاك فتنة أو اضطهاد وهناك آيات تأمر بالسلم إن جنحـوا لـه، وآيات تفضح مكائدهم ونقضهم للعهود فكل هـذا لابد أن يتضـــمنه القـــرآن ولا يقـــال إن بعضه يعــــارض البعض الآخــــر، لأن لكل آية مكانها ومناسبتها، وأسبابها. المهم أن ينتزع أحد آية من سياقها وأن لا يتعصب كل واحد لما ينتهى إليه أو يظن أن ما أن يــــراه هو الحق الوحيد والمؤكد وأن ما ســواه باطل لا ريب فيــه. لأن القــرآن للجميع، وفيه سعة وفسحة ولأنه يعالج الظروف المتغـيرة والمتطـورة ولأن أى واحد لا يسـتطيع أن يقــول فى القــرآن برأيــه، وإنما قصــارى ما

ينتظر منه أن يفهم بقـــدر قدراتـــه، وليس هو مســـئول عن الآخـــرين، وإنما هو على نفسه بصيرة وله أن يقـول هـذا فهمى ولكم فهمكم... لا يفرض أحدنا فهمه على الآخـر، ولأن قـول أى واحـــد، مهما علا، فى القـــرآن لا يحسب على القرآن، وإنما يحسب على قائله، فهو اجتهاد منه فى فهم القرآن الكريم، واجتهاده قد يصيب وقد يخطئ..

ولما كـان القـرآن يتحـدث بطريقته الخاصة عن القتـال أو ما يتعلق به فى ســور عديـــدة، ويزجى فى كل سـورة جانبـاً دون تـرتيب معين، فسنعرض لكل ما جاء فى دفتى المصحف بــدءاً من البقرة حتى سورة الناس ولما جاء فى هـذه السـور من آيـات خاصة بالقتـال وسنشـير إلى الترتيب التاريخى بقدر ما تسنح الفرصة...

الفصل الرابع

آيات القتال فى القرآن الكريم

سنسـير مع القـرآن الكـريم آية فآية لنـبرز الآيات التى جاءت عن القتال من سـورة البقـرة حـتى سـورة النـاس والهـدف من هـذا أن يأخذ القارئ الفكـرة الكاملة لكل ما جـاء فى القـرآن عن هـذا الموضـوع فتتكامل الصـورة فى ذهنـه. وهـــذه طريقة تختلف كل الاختلاف عن الاتكـــاء على آية منزوعة من سياقها..

ومع أن قارئ ما جاء فى هذا الفصل سـيلم بـالطبع بكل ما جـاء فى القـرآن الكـريم عن القتال وتتوفر له الصورة الكلية عنـه، إلا أننا بعد هـــذا كله نقـــول إننا لا يمكن أن نأخذ الصـــورة الكلية تماماً إلا فى مضمون القرآن كلـه. فـرغم كثرة الآيـات، وصـرامة بعضـها. وسـماحة البعض الآخر وهو أمر أشـــرنا إلى مقتضــياته من قبل – فـإن الأغلبية السـاحقة من آيـات القـرآن توجه الإنســـان لله تعـــالى ولمثوبته ورحمته – وهى تنضح بالحكمة والقيم وعمل الخـــــــير وتجنب الشـر. وهى تحض على العفو والصـفح ومكـارم الأخلاق، وهى تعيد الأمر كله إلى الله يـــــــوم القيامـة. فوضع آيـات القتـال وسط بقية الآيـات يحكمها سياقه، وتأخذ منه مكانها وتظهر الطبيعة الاســتثنائية لها وسط الطبيعة الإيمانية القلبيــة، وعـالم الخـير والسـلام والعـدل الـذى تتوخـاه الآيات، والحكمة والموعظة الحسنة التى أنـزلت لهداية الإنسان إلى الله. لأن القرآن كتاب هداية ومعظم توجيهاته تـــتركز على هـــذا، وما آيـــات القتـــال إلا معالجة لجـــانب من جـــوانب تطـــور

الدعوة استكرهت عليه أو هى إحـدى ضـرورات التعقيد فى المجتمع البشرى.

ولكن هـذا، أعـنى فهم كل آيـات القتـال وسط كل آيـات القـرآن، لا يتـأتى إلا إذا أوردنا القـرآن كلـه، وهو ما لا يسـمح به المجـال، ولـذا لزم التنويـه، ويا حبـذا لو استصـحب القـارئ مع آيات القتـال بعض الآيـات الـتى تسـبقها وتلحقها لأن هذا يزيد فى فهمه لآيات القتال..

وقبل أن نتقصى آيات القتال، قد يكون من المفيد أنه نوجه نظر القارئ إلى القرآن الكـريم يفـرق بين "قتـل" "وقـاتلوا" ليس بحسب بحكم الصـياغة اللغوية ولكنه لاختلاف الحكم. فـإن "يقتل" فرد فرداً آخر فإنه يـرتكب أعظم موبقة وقد صـور القـرآن ذلك بما لا يكـون بعـده غاية فمن قتل نفسـاً بغـير نفس وفسـاد فى الأرض فكأنما قتل النـاس جميعـاً وأوجب القـرآن فى القتل القصاص وأعطى ولى المقتول "سـلطاناً" أما إذا حدث خطأ فتحرير رقبة ودية مسلمة إلى أهلـه. وهـذه الآيـات توضح قداسة الحيـاة الإنسـانية. وأنه لا يجـوز مطلقـاً إهـدارها إلا قصاصاً.

ولكن الأمر يختلف عنـدما لا يقع الفعل من فـرد على آخـر، ولكن يشـترك الاثنـان فعندئذ لا يكون قتلاً.. ولكن قتالاً..

* * *

لنبـدأ إذن من البقـرة "فنجد الآية 190" ﴿وَقَـاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَـاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(190) وَاقْتُلُوهُمْ

حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُـوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُـوكُمْ وَالْفِتْنَــةُ أَشَــدُّ مِنْ الْقَتْــلِ وَلا تُقَــاتِلُوهُمْ عِنْــدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَـاقْتُلُوهُمْ كَـذَلِكَ جَـــزَاءُ الْكَافِـرِينَ(191) فَـإِنْ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُـونَ فِتْنَـةٌ وَيَكُـونَ الـدِّينُ لِلَّهِ فَـإِنْ انتَهَـوْا فَلا عُـدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ(193) الشَّـهْرُ الْحَـرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَـاصٌ فَمَنْ اعْتَـدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَــدُوا عَلَيْــهِ بِمِثْــلِ مَا اعْتَــدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَـعَ الْمُتَّقِينَ. {194 البقرة}

هذه الآيـات تصـلح نموذجـاً لتقرير الموقف من الـــذين يقــاتلون المؤمـــنين، ومنها يتضح أن قتال المؤمنين هو رد على قتال المشـــركين لهم ورغم ما يبـــــدو فى نـــــبرة الكلمـــــات الأولى "وَاقْتُلُـــوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُـــوهُمْ" من شـــدة فإنها محكومة بضوابط ما جاء قبلهـا، وبعـدها. فـالأمر هو بقتـال "الـذين يقـاتلونكم" فـإخراجهم يكـون كما أخرجوا المؤمنين مع النهى عن الاعتــداء مع ملاحظة أن محاولة المشـــركين فتنة المؤمـــنين أشد من القتل وهـــذا مبـــدأ رئيسى فى آيـــات القتـال لأنه هو السـبب المـبرر للقتـال. والـذى يجعل القتال قتالاً فى سـبيل حرية العقيـدة فى مواجهة محاولة إملاء العقيـدة. وحـرمت الآيـات القتال عند المسـجد الحـرام، ولكن إذا قـاتلوكم عنده، فلا مناص، ويتعين القتـال "حـتى لا تكـون فتنة ويكون الدين لله" وهو تعبير يذكرنا بـالتعبير الذى أشاعه بعض الأخوة الأقبــاط، وهم دون أن يعلمـوا إنما يكـررون بـالحرف ما جـاءت به الآية

"أن الـدين للـه" والآية تـوحى باسـتبعاد تـدخل البشر فيما هو لله وتركه لله وهو ما يتفق مع اسـتبعاد الإسـلام الأحبـار والسـدنة، والمؤسسة الدينية ومع تقريـره لحرية العقيـدة وأنها قضـية شخصية.

وقد يوضح هذا تمامـاً ما رواه البخـارى عن ابن عمر رضى الله عنـه، أتـاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالاً: إن النـاس قد ضـيعوا وأنت ابن عمر وصـاحب النـبى فما يمنعك أن تخـرج؟ فقـال: يمنعـنى أن الله حـرم دم أخى، قـالا: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَـةٌ﴾. فقـال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكـان الـدين للـه، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الـدين لغير الله.

فهذا النص يوضح تمامـاً أن تـدخل الحكـام هو نوع من الفتنة الـتى تجعل الـدين لغـير اللـه، ويؤكده ما جاء فى تفسـير بن كثـير للآية عنـدما سـئل ابن عمر عنها فقـال "فعلنا على عهد رسول الله، إذ كـان الإسـلام قليلاً وكـان الرجل يفتن فى دينه إما أن يقتلـوه وإما أن يوثـقوه فلما كـثر الإسـلام لم تكن فتنـة" فهـذا النص يوضح أن تـدخل الحكـام هو الفتنة الـتى تجعل الدين لغير الله، وإذا انتفى لم تكن فتنة وبالتالى قتال.

وتقـرر الآية ما سـتقرره آيـات عديـدة من تأكيد مبـدأ المقابلة بالمثل بحيث لا يكـون هنـاك عدوان إلا على الظالمين – ولا يعد وقتئذ عـدوانا لأنه رد الظلم.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَـالُ وَهُـوَ كُـرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْـرٌ لَكُمْ وَعَسَـى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُـوَ شَـرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُـونَ(216) يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيـهِ كَبِيرٌ وَصَـدٌّ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ وَكُفْـرٌ بِـهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَام وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنْ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَــرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْــتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَــدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كَـافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. {217 البقرة}

تقــــــرر الآية أن القتــــــال قد كتب على المؤمـنين رغم أنه كـره لهم. وتلك نقطة هامـة. فالطبيعة البشرية هى الطبيعة البشرية وقد كان – وسـيظل القتـال – عملاً كريهـاً، لأن الإنسـان يدخله قاتلاً أو مقتولاً أو مجروحـاً.. وكلها بـدائل سـيئة، والعافية أسـلم وأحب، ولكن الآية توضح "وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَـيْئًا وَهُـوَ شَـرٌّ لَكُمْ " فـالأمر ليس أمر هـــوى أو حب، ولكن أمر ضـــرورات وواجبـات والتزامـات ومقتضـيات تفرضـها قيم الخـــير والســلام والحرية والعـــدل فى مواجهة القسر وإجبـار النـاس على تـرك ما يؤمنـون به والأخذ بما يــؤمن به الآخــرون وهــذه هى الفتنة التى رأي القـرآن أنها أشد من القتل وأسـوأ من القتال لأن ذلك يعنى سـيطرة الظلم والاسـتبداد والقضـــاء على الحريـــة. وأوضــحت الآيـــات أن الشهر الحرم إذا حاربوا فيـه. فعليكم بـالرد، لأن البادئ أعظم..

وأوردت الآية حكما هاماً. ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وهى إحدى بضع آيات تذكر الردة صراحة ثم لا ترتب عليها عقوبة دنيوية والقرآن فيما يتعلق بالعقائد لا يقرر عقوبات دنيوية، لأن هذه العقوبات ليست من طبيعة العقيدة وإنما يقرر عقوبات أخروية لأنها من طبيعة العقيدة.

هناك آيات عن قتال فرض على بنى إسرائيل ولكنهم تولوا إلا قليلاً. "الآيات 246 – 247" لا تدخل فى شرعية القتال الإسلامية..

فى سورة آل عمران نجد آيات عن موقعة بدر[7] لها طابع خبرى ولا تتضمن أحكاماً "الآيات 122 – 126" كما فيها إشارة.. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾. {146 آل عمران}..

وتتطرق السورة إلى حديث عما أصاب المسلمين فى غزوة أحد، وسلوك المنافقين وتختم بالآيات الرائعة عن مصير الشهداء. وهى آيات لها طابع خبرى، ولكنها تنضح بالحياة وتصور الموقف تصويراً فعالاً..

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالا لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

---

7 **(1) وفى بعض الروايات أنها عن أحد.**

بِمَا يَكْتُمُونَ(167) الَّذِينَ قَالُوا لإِخْـوَانِهِمْ وَقَعَـدُوا لَـوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُـوا قُـلْ فَـادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِـكُمْ الْمَــوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيــنَ(168) وَلا تَحْسَــبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَـلْ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُـونَ(169) فَـرِحِينَ بِمَا آتَـاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْــلِهِ وَيَسْتَبْشِــرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُــوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُــونَ(170) يَسْتَبْشِــرُونَ بِنِعْمَــةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْــلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِـيعُ أَجْـرَ الْمُـؤْمِنِينَ(171) الَّذِينَ اسْـتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُــولِ مِنْ بَعْـدِ مَا أَصَــابَهُمْ الْقَــرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَـوْا أَجْـرٌ عَظِيــمٌ(172) الَّذِينَ قَــالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَــدْ جَمَعُــوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْــلٍ لَمْ يَمْسَسْـهُمْ سُـوءٌ وَاتَّبَعُـوا رِضْـوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾. {174 آل عمران}

رغم أن ســورة النســاء قد عــنيت بقضــية المرأة وإنصافها من ظلم الرجال، فإنها تضـمنت آيات هامة فى القتـال وإن كـان لبعضـها الطـابع الخبرى، ففيها أحكام وتوجيهات أبرزها الآية التى اتخـذها فريق من الخـوارج شـعاراً لهم وسـموا ببعض ما جــــاء بها فقيل لهم الشــــراة وهى. ﴿فَلْيُقَاتِـلْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْـرُونَ الْحَيَـاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا(**74**) وَمَا لَكُمْ لا تُقَــاتِلُونَ فِي سَــبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْــعَفِينَ مِنْ الرِّجَــالِ وَالنِّسَــاءِ وَالْوِلْـدَانِ الَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَـةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا

مِنْ لَـدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَـدُنْكَ نَصِيــرًا(75) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَــاتِلُونَ فِي سَــبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَــاتِلُوا أَوْلِيَـاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَـانَ ضَـعِيفًا(76) أَلَمْ تَــرَ إِلَى الَّذِينَ قِيــلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْــدِيَكُمْ وَأَقِيمُــوا الصَّلاةَ وَآتُـوا الزَّكَـاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَـالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْـيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَـدَّ خَشْــيَةً وَقَـالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَـالَ لَــوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَـلٍ قَـرِيبٍ قُـلْ مَتَـاعُ الـدُّنْيَا قَلِيـلٌ وَالآخِــرَةُ خَيْـرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُــونَ فَتِيلاً (77) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُـدْرِككُّمْ الْمَـوْتُ وَلَـوْ كُنتُمْ فِي بُــرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ. {78 النساء}..

وفى هـذه الآيـات ما فى آيـات سـابقة من بنـاء القتـال انتصـافاً للمستضـعفين من الرجـال والنســاء وقــررت أن الَّذِينَ آمَنُوا يُقَـاتِلُونَ فِي سَــبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَــرُوا يُقَــاتِلُونَ فِي سَــبِيلِ الطَّاغُوتِ. ســواء كــان هــذا الطــاغوت ملكــاً مستبداً أو صنما معبوداً أو شهوة طاغية بالمــال أو نســاء الخ... ونــددت بالــذين خــافوا القتــال وتمنـــــــــوا لو لم يكتب عليهم وأيقظتهم من أوهامهم " أَيْنَمَا تَكُونُوا يُـدْرِككُّمْ الْمَـوْتُ وَلَـوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ " آية 78 النساء..

وتسـتطرد الآيـات إلى حـديث طويل عن المنافقين:

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَــةٌ مِنْهُمْ غَيْــرَ الَّذِي تَقُــولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُــونَ فَــأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيـلاً(81) أَفَلا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ وَلَـوْ كَـانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيــهِ اخْتِلافًا كَثِـيرًا(82)

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأمْنِ أَوِ الْخَـوْفِ أَذَاعُـوا بِـهِ وَلَـوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُـولِ وَإِلَى أُوْلِي الأمْـرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَـهُ الَّذِينَ يَسْـتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَـوْلا فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُــهُ لاتَّبَعْتُمْ الشَّــيْطَانَ إِلا قَلِيلاً(83) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ وَحَـرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَــرُوا وَاللَّهُ أَشَــدُّ بَأْسًــا وَأَشَــدُّ تَنكِيلاً(84) فَقَاتِـلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ وَحَـرِّضْ الْمُـؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾. {85 النساء}..

وتسـتطرد الآيـات فى إشـارتها إلى المنافقين..

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَـــافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْـدُوا مَنْ أَضَـلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(88) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِـذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَـاءَ حَتَّى يُهَـاجِرُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَخُــذُوهُمْ وَاقْتُلُــوهُمْ حَيْثُ وَجَـدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا(89) إِلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَـلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـاتَلُوكُمْ فَـإِنْ اعْتَزَلُـوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ فَمَا جَـعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيـلاً(90) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيــدُونَ أَنْ يَــأْمَنُوكُمْ وَيَــأْمَنُوا قَــوْمَهُمْ كُــلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَـةِ أُرْكِسُــوا فِيهَا فَـإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُـوكُمْ وَيُلْقُــوا

إِلَيْكُمْ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْـدِيَهُمْ فَخُـذُوهُمْ وَاقْتُلُـوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُــوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُـــمْ عَلَيْـــهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾. {91 النساء}..

علينا أن نـــذكر أن هـــذه الآيـــات نـــزلت والإســلام الناشئ محصــور فى المدينة يكــافح اليهــود والمشـــركين فى الخــارج ثم يتعــرض لمــؤامرات المنــافقين – الــذين يمكن أن تطلق عليهم الخونة – فى الداخل.

وتشير الآيـات إلى مـدى المعانـاة المضـنية الــتى عاناها الرســول والمؤمنــون فى مواجهة مـــــؤامرات فريق من المنـــــافقين يعيشـــــون وســـطهم. ويضـــمرون مع ذلك عـــداوة عميقة للمسلمين لا تمحى إلا بأن يعـودوا كفـاراً وتصل عــداوتهم حد التفكــير فى التــآمر عليهم عنــدما يقومـون الصـلاة، وظهر ذلك فى تصـرفاتهم فى أحد وما أوقعوه بالمسلمين عندما انخــذلوا بثلث الجيش وما أشاعوه من إشاعات.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَـأَقَمْتَ لَهُمْ الصَّـلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَــةٌ مِنْهُمْ مَعَــكَ وَلْيَأْخُــذُوا أَسْــلِحَتَهُمْ فَــإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَــلُّوا فَلْيُصَــلُّوا مَعَــكَ وَلْيَأْخُــذُوا حِــذْرَهُمْ وَأَسْــلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَــرُوا لَــوْ تَغْفُلُــونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَـةً وَاحِـدَةً وَلا جُنَـاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَـانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَــرٍ أَوْ كُنتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُـذُوا حِـذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَـــدَّ لِلْكَـــافِرِينَ عَــذَابًا مُهِينًا﴾. {102 النساء}..

يبدو أن غرغرينا الخيانة أصـابت فريقـاً من هــؤلاء ووجب اســتخدام الحسم لــذلك جــاءت الآيات صارمة.

وفى الحقيقة أن سورة النســاء تـابعت فى آيـــات لاحقة المنـــافقين وكشـــفت ســـرائرهم وحذرت المؤمنين منهم.

على أن زهد القرآن فى هذا المجال – رغم الــنزول على ما تتطلبه الضــرورات من حســم، جعله يسـتثنى من لـديهم من المسـلمين ميثـاق عدم اعتداء مع المؤمنين وإذا اعـتزلوا المؤمـنين فلم يقاتلوهم وألقـوا إليهم السـلم فما جعل الله للمؤمنين عليهم سبيلاً وفى مقابله هـؤلاء الـذين يغلب عليهم السـلم أو الـتردد فهنـاك فريق آخر كلما ردوا إلى الفتنة أركســـوا فيهـــا. فـــإن لم يعتزلوكم أو يلقـوا إليكم السـلم ويكفـوا أيـديهم ففى هذه الحالة يستحقون القتل. "أينما ثقفــوا" وهذه كلها تحذيرات تجمع ما بين عدم المسـاس بمن لم يبدأ والذين كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها وما ينبغى أن يعامل به هؤلاء من حسم.

وهكـــــذا يتضح أنه ما دام الموضــــوع هو القتال، فلا إنصاف أو اعتدال أكثر من ذلك..

بل أكــثر من هــذا.. لقد تضــمنت ســورة النساء آية عن أشد فئـات المنـافقين نفاقـاً ولم توجب عليهم عقوبة دنيوية لهذا النفاق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُــوا ثُمَّ كَفَــرُوا ثُمَّ آمَنُــوا ثُمَّ كَفَــرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْــرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِــرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْــدِيَهُمْ سَــبِيلاً﴾. {137 النســاء}.. فمع أن

القرآن كشف خبـيئتهم، وأعلن كفـرهم مـرة بعد أخرى، فإنه لم يوقع عليهم عقوبة.

إن مقارنة معاملة هــؤلاء الــذين آمنــوا، ثم كفــروا، ثم آمنــوا ثم كفــروا ثم ازدادوا كفــراً – وليس هناك بالطبع ما هو أبعد من هـذا، بمعاملة المنـافقين فى الآيـات الســابقة عليها توضح أن الآيـات السـابقة أرادت مجموعة من المنـافقين المقـاتلين أو المتـآمرين ومن هنا جـاءت أحكـام قتـالهم. أما الـذين كفـروا بعد إيمـانهم وازدادوا كفراً فإنهم لم يعلنوا، أو يضمروا حربــا، ومن ثم ترك عقابهم إلى الله يوم القيامة.

فى سورة الأنفال نجد حديثاً طـويلاً مـؤثراً عن بدر، ولكنه ذا طابع إخبارى وأن تضمن آداب القتــال وما ينبغى على المؤمــنين ســلوكه عند الزحف" حتى تأتى الآية:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَـتْ سُـنَّةُ الأَوَّلِينَ(38) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُـونَ فِتْنَـةٌ وَيَكُـونَ الـدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِـيرٌ(39)﴾. {39 الأنفال}..

وقد شــرحنا معــنى "حــتى لا تكــون فتنة ويكــون الــدين كله للــه" من قبل ولا مــانع من الإشــــارة إليها فالجملة واضـــحة فهى تســـتبعد الفتنة أى إجبار الناس على تغيــير المعتقد – كما جاء فى سورة البروج ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَـذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾. {10 البروج}.. فـإذا اسـتبعدت الفتنة أصـبح الـدين للـه. بحيث لا يكـون قضـية

يتقاتل ويتجادل عليها البشر، وبهذا يكون المعنى الحقيقى بعيداً عما قد يتبادر إلى ذهن بعض. المتعصبين من أن المقصود أن يكون الدين هو الإسلام فى حين أن نص الآية ويكون الدين كله لله: يشمل كل ملل الدين، وأن قصره على الإسلام يناقض الآيات التى تركت الأديان الأخرى (المسيحية، واليهودية، والصائبة والذين هادوا الخ...) على ما هى عليه ووكلت إلى الله وحده الفصل بينهم يوم القيامة.

ولو كان الغرض من تعبير أن يكون الدين كله لله الإسلام هو لوجب أن يغير هؤلاء دينهم إلى الإسلام فإن لم يفعلوا ذلك طواعية فجبراً وقسراً. وهو ما يكون "فتنة" ويؤدى هذا التفسير إلى عكس معنى الآية.

وواضح أن الأمر بالقتال هو بالنسبة للذين كفروا ويصرون على قتال المسلمين أما إذا "انتهوا" فسيغفر لهم، بل إن آية القتال نفسها تعيد "فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير".

وتشير – سورة الأنفال – مرة أخرى – إلى الذين ينكثون عهدهم فى كل مرة...

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ(56) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(57) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ(58) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ(59) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

وَآخَـرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُـونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُـوا مِنْ شَـيْءٍ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ يُـوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ(60) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَـاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُـوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ. { 61 الأنفال}..

وهذه هى حقـائق الحيـاة الصـلبة، والمـرة، والتى ليس منها منـاص. ومع هـذا، فـإن الشـعار الإسلامى هو لا تتمنوا لقاء العدو.. فـإذا لقيتمـوه فاصبروا".

وفى هذه الآيـات إشـارة إلى تـبرير القتـال عن نكث العهد (خاصة عنـــدما يتكـــرر) والآية فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَـرْبِ فَشَـرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَـــذَّكَّرُونَ. تـــوحى بقطع مـــادة النكث والخلاف، وكما ذكرنا فإن أولى ضرورات الحرب تقضى باستئصال مادته وعـدم التهـاون معه لأن هذا يعيده جذعه ويفسد الانتصار.

وتضع الآية وَإِمَّا تَخَـافَنَّ مِنْ قَـوْمٍ خِيَانَـةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ. مبـــدءاً يقـــوم على المعالجة الوقائية وتفـــويت الفرصة على الخـــائنين. كما تضع آية " وَأَعِـــدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ إلخ..." مبدأ الردع فى الحـــــرب فما يوقف العـــــدو عن شن غاراته هو معرفته أن عدوه سيرد عليه بقوة. وأن لديه من السلاح ما يكفل له الانتصار، وعندئذ فإنه سيفكر طويلاً قبل أن يغامر بالهجوم.

وكلام القـــرآن هنا هو ما يقـــرره كل قـــادة الحـروب وأسـاتذة الفن العسـكرى. أما الجديـد، الذى قد لا يـأتون به ضـرورة، فهو تأكيد القـرآن على التجـاوب مع أى دعـوة للجنـوح للسـلم أو

عــرض للصــلح. وهو ما يوضح تفضــيل القــرآن للســلام، وأن كل دعــوة للقتــال أو الحــرب هى رضوخ للضرورات أو دفاع عن الحريات.

فى ســـورة التوبـــة، وهى إحـــدى الســـور الأخــيرة للقــرآن أراد الإســلام أن يطهر الأرض المقدسة من المشركين إلا إذا تـابوا، فـإذا تـابوا فقد أصـــــبحوا مســـــلمين كما أذنت بقتـــــال المنافقين.

وقضت هـذه الآيـات بـأن لا يطـوف بـالبيت عريان وأن لا يحج إليه مشرك، كما كـانت إيـذانا بتصــفية المشــركين فاما أن يســلموا، وإما أن يغـــادروا هـــذه الأرض بعد أربعة أشـــهر.. وإلا عرضوا أنفسهم للقتل.

﴿ بَرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْــرِكِينَ(1) فَسِــيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَــةَ أَشْـهُرٍ وَاعْلَمُـوا أَنَّكُمْ غَيْـرُ مُعْجِـزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ(2) وَأَذَانٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى النَّاسِ يَـــوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَـــرِ أَنَّ اللَّهَ بَـــرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُـوَ خَيْـرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَـوَلَّيْتُمْ فَـاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْـرُ مُعْجِـزِي اللَّهِ وَبَشِّـرْ الَّذِينَ كَفَـرُوا بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ(3) إِلا الَّذِينَ عَاهَـدتُّمْ مِنْ الْمُشْـــرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُـــوكُمْ شَـــيْئًا وَلَمْ يُظَـاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَـدًا فَـأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْـدَهُمْ إِلَى مُـــدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(4) فَـــإِذَا انسَـــلَخَ الأَشْـــهُرُ الْحُـــرُمُ فَـــاقْتُلُوا الْمُشْـــرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَـإِنْ تَـابُوا وَأَقَـامُوا الصَّـلاةَ وَآتَـوْا الزَّكَـاةَ

فَخَلُّوا سَـبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ(5) وَإِنْ أَحَـدٌ مِنْ الْمُشْــرِكِينَ اسْــتَجَارَكَ فَــأَجِرْهُ حَتَّى يَسْــمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْــهُ مَأْمَنَــهُ ذَلِــكَ بِــأَنَّهُمْ قَــوْمٌ لا يَعْلَمُونَ(6) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْـدَ اللَّهِ وَعِنْـدَ رَسُــولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَـدْتُمْ عِنْـدَ الْمَسْـجِدِ الْحَــرَامِ فَمَا اسْــتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْــتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(7) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُــوا فِيكُمْ إِلا وَلا ذِمَّةً يُرْضُــونَكُمْ بِــأَفْوَاهِهِمْ وَتَــأْبَى قُلُــوبُهُمْ وَأَكْثَـرُهُمْ فَاسِـقُونَ(8) اشْــتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَـاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(9) لا يَرْقُبُـونَ فِي مُـؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُعْتَدُونَ(10) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّــلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(11) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَـانَهُمْ مِنْ بَعْــدِ عَهْــدِهِمْ وَطَعَنُــوا فِي دِينِكُمْ فَقَــاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْـرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَـانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُـونَ(12) أَلا تُقَــاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُــوا أَيْمَــانَهُمْ وَهَمُّوا بِــإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَــوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُـؤْمِنِينَ(13) قَـاتِلُوهُمْ يُعَـذِّبْهُمْ اللَّهُ بِأَيْـدِيكُمْ وَيُخْـزِهِمْ وَيَنْصُـرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَـوْمٍ مُـؤْمِنِينَ(14) وَيُـذْهِبْ غَيْـظَ قُلُــوبِهِمْ وَيَتُــوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَــاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. {15 التوبة}..

ويلحظ فى هذه الآيات طابع الصرامة، دون التخلى عن مبدأ الالتزام بالعهود والمواثيـق. وقد جــاء نص الآية 6 وسط هــذه الآيــات الصــارمة كبسمة وسط عبوس، ونسـمة فى ثنايا عاصـفة.

ودلت على أن القــرآن الكــريم لا ينسى هــذه القسمة من قسماته حتى فى أشد المواقف.

لقد تحكمت فى هذه الآيات ضرورة تصـفية الموقف بعد سلســلة المعــارك الــتى ســمحت بسيادة الإسلام بإستثناء "جيـوب" كـان لابد من تصفيتها لأنه ليس من الحزم فى شىء ترك مثل هذه الجيـوب الـتى يمكن أن تتضـخم مع الـزمن وتصبح خطراً داهما على استقرار البلاد.

من أجل هذا يكون للصرامة ما يبررها، كما يــدل على أن هــذه الصــرامة إنما هى ضــرورة لإجراءات وقائية لتـأمين مسـتقبل البلاد. بمعـنى أنها لحظت دواع خاصة واســتثنائية وقد شــرحنا عمق العــداوة الــتى يكنها المشــركون واليهــود والمنافقون للإسلام وأنهم لا يرقبــون إلا ولا ذمة ومع هــذا فبــاب التوبة مفتــوح دائمــاً، ولو تــابوا وأقاموا الصلاة وآتــوا الزكـاة فهم "إخــوانكم فى اللــه" وليس من ســماحة، وحــرص على إتاحة بدائل ومندوحات عن القتال مثل هذا..

أن ســورة القتــال.. هى نفســها ســورة "التوبة".

وتتواصل الآيــات القارعــة، الصــاعقة الـتى بـدأت بها وتوجه الحـديث إلى المؤمـنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَــاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْـرَ عَلَى الإِيمَـانِ وَمَنْ يَتَـوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾. {آية 23}..

وتضـعهم أمـام خيـارين: ما يقضـيه الإيمـان من تضحية، وما يصطحب بالـدنيا من ملاذ. ﴿قُـلْ إِنْ كَـانَ آبَـاؤُكُمْ وَأَبْنَـاؤُكُمْ وَإِخْــوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـارَةٌ تَخْشَـوْنَ

كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. {الآية 24}..

ويرتفع السياق حتى يصل إلى قمته فى الآية {29}..ـ ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

نحن هنا أمام آية جاءت بوصف انفردت به، ولم يرد في المصحف بهذا الصدد إلا هذه المرة فضلاً عن أنه إذا فهم أنه ممارسة أو مبدأ، فإنه يخالف ما تضمنته آيات عديدة عما يتبع فى مثل هذا الموقف كما أنه يخالف الوقائع المادية لما حدث أيام الرسول والخلفاء الراشدين.

والنص الذى جاء به هذا التعبير، نص نعجز عن التوصل إلى مفهومه الحق، وليس لدينا فى الصحيح الثابت تفسيراً له من الرسول.. فالآية تتحدث عن فئة من أهل الكتاب لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا تحرم ما حرمه الله، ورسوله، ولا يدينون دين الحق، ونحن نعرف أن أهل الكتاب سواء كانوا من اليهود أو النصارى يؤمنون بالله ويؤمنون باليوم الآخر، كما أنهم يحرمون ما حرم الله من قتل أو زنا أو سرقة، ومن ثم فيبدو أن هناك فئة شاذة ينطبق عليها وصف القرآن، ويفترض أن تكون هذه الفئة قد نصبت نفسها لعداوة الإسلام، وأبدت استكباراً تطلب مقاتلتها ودفعها الجزية بشىء من الصغار.

ولا يمكن القول أن المقصود بهذه الفئة هو التحريف الـــذى أقحم على الكتب المقدسة لأن التحريف كـان فى تكـييف صـورة "اللـه" وليس عـدم الإيمـان بالله وقد تقبل القـرآن كل الملل والنحل على ما هى عليه، ونهى أن نجـــادلهم إلا بـــالتى هى أحســـن، وأمر المؤمـــنين. ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. بل أمر أن نقول ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾. وأمر بالقسط والعـــدل فيهم ما لم يقـــاتلوا المســلمين. وعنـدما جـاء وفد نصـارى نجـران أكـرمهم الرسـول وأنـزلهم بالمسـجد ليقيمـوا صلواتهم.

وقد أخذ الرسـول الجزيـة، ولم يصـطحب أبـداً أخـذها بصـورة من صـور الصـغار بل إن الإسلام خفف منها، ورفض أن تؤخذ من الصبيان والنساء والرهبان.

لا يتفق هـذا الحكم الوقـائع التاريخية الثابتة أن معالجة الإسـلام للممارسـات القديمة كـانت تتسم بسمة من التقدم سواء فى ذلك الـرق، أو المـــرأة، أو العلاقة بين العامل وصـــاحب العمل والعلاقة بين الحـاكم والمحكـوم وكـذلك أحكـام القتال..

ويؤكد هـذا أن الخلفـاء الراشـدين عنـدما فرضوا الجزية على الروم لم يقترن ذلك بصغار، بل كان الأهلون شـاكرين للمسـلمين تسـامحهم

الــذى لم يجــدوه من الفــرس أو البيزنطــيين[8]. ومن أمثلة ذلك:

كتب خالد بن الوليد لصــــلوبا بن نســــطونا حين دخل الفـرات وأوغل فيـه.. هـذا كتـاب من خالد ابن الوليد لصلوبا بن نسـطونا وقومـه. إنى عاهـــــدتكم على الجزية والمنعــــــة، فلك الذمة والمنعـة، وما منعنـاكم فلنا الجزية وإلا فلا. كتب سنة أثنتى عشرة فى صفر.

وكتب أهل ذمة العراق لأمــراء المســلمين: "إنا قد أدينا الجزية التى عاهـدنا عليها خالد على أن يمنعونا وأمــــيرهم البغى من المســــلمين وغيرهم".

ولما بلغ أبا عبيـــدة أن الـــروم قد جمعـــوا جموعهم، ورأى أن ينسحب من بعض البلاد التى أخــذت منها الجزية كتب إلى عماله بالشــام أن يردوا على أهلها ما أخذوه منهم، وكتب إليهم أن يقولوا: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجمــوع، وأنكم قد اشــترطم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقـــدر على ذلـــك. وقد رددنا عليكم ما أخــذنا منكم ونحن لكم على الشــرط، وما كـان بيننا وبينكم إن نصـرنا الله عليهم. فلما قالوا لهم ذلك وردوا عليهم الأمـوال الـتى جبوها منهم قالوا: "ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو

---

[8] **(1) أن ما جاء فى كتب التفسير، وما نسب بعضه إلى عمر بن الخطاب أو الصحابة هو محض هراء – ومما دس على الإسلام فى تلك الفترة المظلمة التى هبطت فيها قيمة الإنسان – مسلم أو غير مسلم – إلى الحضيض وتعرضت الشعوب لإذلال الحكام.**

كانوا هم لم يردوا علينا شـيئاً وأخـذوا كل شـىء بقى حتى لا يدعوا شيئاً".

وكتب عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطـاب" "هـذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمـنين أهل أذربيجـان: سـهلها وجبلها وحواشـيها وشـغارها وأهل مللها كلهم الأمــان على أنفســهم وأمــوالهم ومللهم وشــرائعهم، على أن يــؤدوا الجزية على قــدر طــاقتهم ومن حشر منهم فى ســنة (أى جنــد) وضع عنه جــزاء الســنة ومن أقــام فله مثل من أقام من ذلك"..

فهـذه الوقـائع التاريخية فى عهد الرسـول والخلفـاء الراشـدين تسـتبعد تمامـاً إلحـاق أى صغار بالذمبين عند أخذ الجزية. وفيما نرى فـإن الآية لا تشـــير إلى فئة معينة وجــــدت أيـــام الرســول، ولكنها تتحــدث عن فئة ســتظهر فى المسـتقبل من تلك الفئـات الشـاذة عن الأديـان الســماوية، كالقرابطة وغــيرهم من حفلت بهم كتب الملل والنحل وأقــــترف الكثــــير منها المنكـرات والفظـائع بحيث يكـون دفعهم الجزية عن يــدوهم صــاغرون عقابـاً عـادلاً. ومعــروف بــالطبع أن القــرآن هو للمســتقبل كما هو عن الماضـــى.. وقد لا يقتصر ذلك على هـــذه الآية وحدها، لأن سورة التوبة كما سنذكر استشـرقت عــالم الإســلام بعد أن يفضى الرسـول إلى ربه وتبدأ الفتن..

وتمضى الآيـات بالسـياق القـوى للسـورة.. ﴿هُـوَ الَّذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُـدَى وَدِينِ الْحَـقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الـدِّينِ كُلِّهِ وَلَـوْ كَـرِهَ الْمُشْـرِكُونَ﴾.

وهو ما يصـــــدقه انتشـــــار الإســـلام رغم كل المعوقـات حـتى فى الـدول الأوربية والأمريكية والـــتى لو أحسن المســـلمون عرضه لآمن به الكثيرون" وتقـرع الآيـات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيـلَ لَكُمْ انفِـرُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِـرَةِ فَمَا مَتَـاعُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا فِي الآخِـرَةِ إِلا قَلِيـلٌ(38) تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْـرَكُمْ وَلا تَضُـرُّوهُ شَـيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ.﴾ {39}.. وتذكر الآيات للمسـلمين كيف نصر الله رسوله ﴿تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَـرُوا ثَـانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَـارِ إِذْ يَقُـولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْـهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُـودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَـلَ كَلِمَـةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ{40} .﴾..

وتعـــــاتب الآية الرســـــول لأنه عفا عن المتخلفين قبل أن يتبين أمرهم وتتضح سريرتهم وتنكشف مؤامراتهم ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَـةَ وَفِيكُمْ سَـمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(47) لَقَـدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَـاءَ الْحَقُّ وَظَهَـرَ أَمْـرُ اللَّهِ وَهُمْ كَـارِهُونَ(48) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُـــولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَـــةِ سَـقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَـةٌ بِالْكَـافِرِينَ(49) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِـبْكَ مُصِـيبَةٌ يَقُولُـوا

قَـدْ أَخَـذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْـلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُـونَ.﴾ ..{50}

وحـددت الآيـات فصـائل هـؤلاء المنـافقين فمنهم من يقــول "إئــذن لى ولا تفتــنى" ومنهم من يهمز الرســـول فى الصـــدقات، ومنهم من يقـــول هو أذن ويزعمـــون مع هـــذا أنهم من المؤمنين. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُـوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ(65) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْـدَ إِيمَـانِكُمْ إِنْ نَعْـفُ عَنْ طَائِفَــةٍ مِنْكُمْ نُعَــذِّبْ طَائِفَــةً بِــأَنَّهُمْ كَـانُوا مُجْرِمِينَ{66} .﴾..

لا عجب أن تأتى الآيات...

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِـــدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَـــافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(73) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَـالُوا وَلَقَـدْ قَـالُوا كَلِمَـةَ الْكُفْـرِ وَكَفَـرُوا بَعْـدَ إِسْـلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَـالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَـإِنْ يَتُوبُــوا يَكُنْ خَيْــرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَــذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ{74} .﴾..

ومع شـدة نـبرة الآيـات، فإنها اسـتخدمت "تعبير جاهد، وليس قاتـل، وكـذلك "أغلظ عليهم فإن الإغلاظ له بالطبع حدوده.

ونهت آيات النبى عن الاستغفار للمشركين أو أن يصلى عليهم أو أن يقف على قبـورهم لأن المقام ليس مقام صلح ومغفرة، ﴿مَا كَـانَ لِلنَّبِيِّ

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ **(113)** وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ{114} .﴾..

وتلاحق السورة المنافقين حتى الآية التى تسبق الأخيرة منها. ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ(125) أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ(126) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ{127} .﴾..

حتى تنتهى السورة نهاية وادعة. ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ{129} .﴾..

* * *

كان بعض الصحابة يطلق على سورة التوبة "الفاضحة" لأنها فضحت فصائل ومعسكرات المنافقين وكشفت ما يسرون وبينت ما يضمرون من عداوة للإسلام ولما كانت من السور الأخيرة فكأنها أرادت تأمين

مســتقبل الأمة وتبصــيرها بأعــدائها الــداخليين الذين قد يكونـون أشد خطـراً عليها من الأعـداء الخارجيين.. والسورة دراسة نفسية عميقة قــدر ما هى اســـتعراض اجتمــــاعى دقيق للمجتمع الإسلامى وقتئذ وما اصطحب نجاحه من مخاطر مضــمرة لابد أن تعــالج بكل حسم وقــوة. ومن يستعرض التاريخ الإسلامى ما تعرض له الإسلام فى أعقاب وفاة الرسول عنـدما ارتـدت العـرب كلها وتضــرمت الأرض نــار، وارتــدت كل قبيلة عامة أو خاصــة" وكــاد أهل مكة أن يرتـدوا ولم تبق فئة مؤمنة صــامدة إلا بالمدينــة، وأن لــولا عـــزم وحسم أبى بكر وسياســته الــتى كــانت تطبيقاً لآيات الشدة فى سورة التوبة، لما قامت للإسلام قائمة. ولاستطاع المشركون أن يعـودوا بالعرب إلى جاهليتهم مرة أخرى.

فى ضــوء تلك الســنوات الحرجة الفاصــلة من نـزول السـورة فى حجة الـوداع حـتى وفـاة الرسول ومداهمة الردة بأحداثها الرهيبــة. يمكن تفهم شدة آيات السورة والطـابع الخـاص الـذى شملها كلها تقربت بل ويمكن القول أن لســورة التوبة أثر فى حسم أبى بكر والمســلمين الـذين وقفــوا معه أمــام طوفــان المرتــدين وســلكوا إزاءهم مســلك الشـدة الـتى تطلبتها تلك الأزمة الحالقة التى هددت بزوال الإسلام.

بل يمكن أكــثر من هــذا القــول أن ســورة التوبة تعــبر عن فــترات الشــدة أو المحن الـتى تحيق بــالمجتمع الإســلامى فى بلد ما فى تــاريخ مــا. وهى ترسم السياسة الـتى يجب أن تنم فى هـذا الحـال المـتربح بشـكل عامة فإنها وتـوجب الحســم، لأن الموقف يتطلبـه، وهو السر فى أن

الآية رفضت اجتهـــاد الرســـول فى الصـــفح والسماحة مع المنـافقين لأنهم قد يفهمـون هـذا على أنه ضعف.

باختصــار إنها تقــدم دروســاً يجب أن تتبع عندما تهب العواصف وتتقلب القلـوب وتتـداولها الأحن والمحن وتمر بأزمــات متلاحقــة.. تتطلب سياقاً وحسماً أعلى وأشد مما يتبع عادة.

ومع هذا فـإن السـورة لم تجـاور الخطـوط العامة لآيـات القتـال، لأن نـبرة الحسم هى من أساسيات الحديث عن القتال وهى موجـودة فى كل الآيات. الجديد أن السورة كلها تقريباً عـنيت بشـــرح ســـرائر ونوايا المنـــافقين وسياســـات المشــركين. ولم تـأت – باســتثناء تلك الإشــارة الوحيدة عن إعطاء الجزية عن يدوهم صاغرون. وقد أوضحنا أنه لا يمكن استخراج حكم منها لأننا لا نعلم ملابساتها بالدقة.

* * *

بعد ســـورة التوبة تـــترى الســـور المكية يــونس، وهــود، ويوســف، والرعــد، وإبــراهيم، والحجـر، والنمـل، والإسـراء، والكهـف، ومـريم، وطـــه، والأنبيـــاء.. وكلها ســـور طويلة رائعـــة، صادعة، ولكنها لا تتضمن قتالاً حتى تأتى ســوره الحج المدنية وهى السورة الـتى نـزلت فيها أول آية سمحت بالقتال وأذنت للمسلمين به.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْـــرِهِمْ لَقَـــدِيرٌ(39) الَّذِينَ أُخْرِجُـــوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ لَهُـدِّمَتْ صَـوَامِعُ وَبِيَـعٌ

وَصَـلَوَاتٌ وَمَسَـاجِدُ يُـذْكَرُ فِيهَا اسْـمُ اللَّهِ كَثِـيرًا وَلَيَنصُـرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُـرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيـزٌ(40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّـلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَـرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾. {الحج 41}..

هذه هى أولى الآيات إذنا بالقتـال. وقد بنت هذا الأذن على أن ظلم المشركين قد بلغ مـداه، وأن الله قد مكن للمسـلمين بما يكفل النصـرة، كما تبــنى الآية هــذا القتل على أسـاس المبـدأ الأصولى فى المجتمع البشرى، مبدأ التدافع وأنه لولا هذا المبدأ لهـدمت دور العبـادة لكل الأديـان وختمت الآية أجمل ختــام عنـــدما صــورت المنتصرين. ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَـوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾. {41 الحج}..

وتتــوالى الســور المكية مــرة أخــرى: المؤمنــون، والفرقــان، والشــعراء، والنمــل، والقصــص، والعنكبــوت، والــروم، ولقمــان، والسجدة، حتى تأتى سورة الأحزاب التى نـزلت بمناســبة إحــدى المجابهــات العســكرية بين المسـلمين والمشـركين عند تحـالف هـؤلاء مع بقية مشـركى العـرب واليهـود.. فتحـدثت عن المنـافقين الـذين تملكهم الـروع، كالـذى يغشى عليه من المــوت فــإذا ذهب الخــوف ســلقوا المؤمنين بألسنة حداد. وفى الـوقت نفسه فـإن الســورة قلــدت المؤمــنين الصــادقين إحــدى قلائدها. ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَـذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَـدَقَ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**(22)** مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ

صَـدَقُوا مَا عَاهَـدُوا اللَّهَ عَلَيْـهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَـى نَحْبَـهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِـرُ وَمَا بَـدَّلُوا تَبْـدِيلاً (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَـاءَ أَوْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ غَفُـورًا رَحِيمًا(24) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَـــرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا(25) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْـلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الـرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُـــونَ وَتَأْســـرُونَ فَرِيقًا(26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَـهُمْ وَدِيَـارَهُمْ وَأَمْـوَالَهُمْ وَأَرْضًـا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَـــانَ اللَّهُ عَلَى كُـــلِّ شَـــيْءٍ قَـــدِيرًا. {27 الأحزاب}..

باستثناء هذه السورة، تـترى السـور المكية فاطر، ويس، والصافات، وص، والزمـر، وغـافر، وفصـــلت، والشـــورى، والزخـــرف، والـــدخان، والجاثية، والأحقاف دون إشارة إلى قتال.

في سـورة محمد نجد نصـاً تضـمن حكمـاً هامـاً من أحكـام القـرآن يحـدد مصـير الأسـرى فَإِذا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِـدَاءً حَتَّى تَضَـعَ الْحَـرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِـكَ وَلَـوْ يَشَـاءُ اللَّهُ لانتَصَـرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُـوَ بَعْضَـكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُـوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِـلَّ أَعْمَـالَهُمْ. {4 محمد}..

وهذه الآية تمثل نظرية الإسلام عن القتـال وخصائصـــها الممـــيزة مثل الـــدخول فيه بجدية وعزيمة، فإنها الحرب.. "فضرب الرقـاب" حـتى إذا أثخنتمـوهم فشـدوا الوثـاق. هنا حكم الرحمة بعد القسوة الأولى. ثم يأتى تحديد مصـير هـؤلاء

الذين أنقذوا من القتل ليصبحوا فى الأسر" فأما منا بعد. وأما فداء"..

هذا حكم طبقه الرسول فى غزواته، ولكنه كان أكثر "تقدمية" مما تسمح به ظروف المجتمع، فلم يستطعه المسلمون ولم يحتفظوا بهذه القاعدة الإنسانية ما بين "المن أو الفداء" فإذا لم يمكن المن فالفداء... **وحتى الآن تظل الآية ذات طابع مثالى لأن قصارى ما وصل إليه العصر الحديث هو "تبادل الأسرى" أما المن فهذا ما لا نجده فى قوانين البشر.**

كذلك تضمنت سورة الحجرات نصاً عن التصرف عندما تشتجر العداوة والحرب بين فئتين من المؤمنين. ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**(9)** إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. {10 الحجرات}..

يلحظ أولاً أن الآية لم تستبعد أن يحدث قتال بين طائفتين من المؤمنين وقد كان يرجى أن لا تصل العداوة بين طائفتين من المؤمنين حد القتال. ولكن "ما كل ما يتمنى المرء يدركه" وما دام القرآن يعالج المجتمع البشرى بما فيه من قصور، فلابد من التسليم بإمكانية حدوث هذا. وحددت الآية الإجراءات فأوجبت الصلح بينهما فإذا بغت إحداهما على الأخرى، وجب قتال الباغية فإذا فاءت إلى أمر الله فيصلح بينهما بالعدل، لا بالانتقام أو الثأر، ووجهت الآية

النظر إلى أن المؤمـــنين رغم تقـــاتلهم أخـــوة "فأصلحوا بين أخويكم"..

لقد شـرحنا الآية فى إحـدى الكتيبـات الـتى أصـدرها الاتحـاد الإسـلامى الـدولى للعمل تحت عنـــوان "محكمة العـــدل الإســـلامية الدوليـــة" محكمة الآية 9 من سورة الحجرات.

تعـود الآيـات المكية مع سـورة ق الرائعـة، والذاريات، والطور، والنجم، والواقعة، حـتى نجد أخيراً "سـورة الحشر المدنيـة" الـتى نـزلت بعد الأحزاب وتضمنت قواعد تقسـيم الغنـائم، وهـذا الحديث الرائع عن الأنصار.

﴿وَالَّذِينَ تَبَـوَّءُوا الـدَّارَ وَالإِيمَـانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِـدُونَ فِي صُـدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَـوْ كَـانَ بِهِمْ خَصَاصَـةٌ وَمَنْ يُـوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. {9 الحشر}..

كما تضمنت السـورة وصـفاً لليهـود لعله لا يزال عالقا بهم.

﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلا فِي قُرًى مُحَصَّـنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَـوْمٌ لا يَعْقِلُـونَ﴾. {14 الحشر}..

بعد ســورة الحشر تــأتى ســورة الممتحنة ذات الأهمية الخاصة لأنها تضـــــمنت تحديـــــداً للعلاقـات مع الآخـرين. وهـؤلاء الآخـرين إما أن يكونوا من المتآمرين على الإسلام أو من الــذين وقفوا موقفـاً سـلبياً، فلم يشـتركوا فى تـآمر أو

إيـــذاء أو فتنة أو إخـــراج من بلادهم مما يجعل السورة "امتحاناً" لا للمهاجرات، كما هو الشـائع – ولكن بالنسـبة لهـاتين الفئـتين الكبـيرتين لقد نهت السـورة عن مـوالاه أعـداء للرسـول يضمرون العداوة للإسلام.

﴿قَـدْ كَـانَتْ لَكُمْ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ فِي إِبْـرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُـرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَـكَ وَمَا أَمْلِـكُ لَـكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَـيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْـكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْـكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(4) رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِـرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ(5) لَقَـدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُـوا اللَّهَ وَالْيَـوْمَ الآخِـرَ وَمَن يَتَـوَلَّ فَـإِنَّ اللَّهَ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. {6 الممتحنة}..

والآيات على صرامتها تمثل المسلك الأمثل مع هـؤلاء الأعـداء.. وأى مسـلك آخر لابد وأن يتضـمن نفاقـاً وريـاء ومداهنة واختيانـاً لحق العقيـدة. والأمر بعد هـذا سـلبى. فهو لا يـرتب فعلاً إيجابياً، ولكن عدم موالاة.

ومع هـذا كله فقد تحفظت الآية 7 ﴿عَسَـى اللَّهُ أَنْ يَجْعَـلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَـادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فلا يفـترض أن يتضمن عدم الموالاة شنآناً من العداوة.

ثم تحـدد الآية الثامنة الموقف من الآخـرين المسالمين وتضع المبدأ الحاكم.

﴿لا يَنْهَـاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَـاتِلُوكُمْ فِي الــدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُــوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ أَنْ تَبَـرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

تضمنت سـورة التحـريم المدنية نصـاً يـأمر بأن النبى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِـدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَـافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِــيرُ﴾. {9 التحريم}..

ويلحظ أن القـرآن اسـتخدم تعبـير "جاهـد" وليس قاتــل.. ولــذلك جــاء "وأغلظ عليهم" مما يوحى أن هذا الجهاد وأن تضمن الشدة والغلظة فإنه لا يتضمن قتالاً ولابد أن هناك أسـباباً خاصة تطلبت ذلــك، لأن المعــروف عن الرســول هو اللين والدعة والبعد عن الغلظة والشدة.

والســور بعد هــذا مكية لا أثر فيها لقتــال باستثناء نبوءة فى سورة المزمل وهى من أولى سور القرآن الكريم بما سيحدث في المستقبل من قتــال ﴿.. عَلِمَ أَنْ سَــيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَــى وَآخَرُونَ يَضْـرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُـونَ مِنْ فَضْـلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ {آية 20}.

* * *

يتضح من هــذا الاستقصــاء للآيــات الــتى جــاءت عن القتــال بين دفــتى المصـحف. ومن سورة البقـرة حـتى سـورة النـاس أنها محـدودة العــدد لا تشــغل ســوى حــيز ضــئيل إذا قيس بالمســاحة الكبــيرة للتوجيه الخلقى والهــدى الإلهى الذى هو مادة القـرآن لحمته وسـداه، ولا تعد شيئاً أمام مشاهد القيامة أو الأمثال الــتى لا حصر لها التى ضربها القرآن لأنمـاط من النـاس

المؤمـــــنين والكـــــافرين، والمنـــــافقين الخ... ومسـالكهم فى سـراء الحيـاة وبأسـائها، وهى لا تعد شيئاً مذكوراً أمام ما جاء عن اليـوم الآخـر.. أو عن الأحـاديث عن الكـون والطبيعـة، وقصص الغابرين الخ...

وقد تصورنا عندما عزمنا على إيــراد كل ما جـاء عن أحكـام القتـال فى المصـحف أن ذلك سيستغرق سـتين أو سـبعين صـفحة لما ترسب فى الــذهن عن الأهمية المذاعة عن الموضـــوع وعن إشادة القرآن به. ولكن ثبت أن كل ما جاء عن أحكام القتال، قرابة خمس عشرة صفحة.

وتتنــاقض هــذه الحقيقـــة، أعـــنى ضـــآلة المساحة التى تشغلها أحكام القتال فى القـرآن الكريم مع غزارة الحديث عن القتال فى الفقه، وتاريخ الرسول حيث تشغل الغـزوات المسـاحة الكبرى من السيرة، الأمر الذى أزعج فريقـاً من البـاحثين المعاصـرين، وأثـار حـيرتهم، وإن كـان تبريرها ليس عسـيراً. فـإن سياسـات ومسـالك وتصـرفات الرسـول ذهبت بها كتب الفقه الـتى إعتبرت أنه يدخل فى السُنة كل فعـل، أو قـول، أو تقرير، من الرسول، فلم يعد لكتب التاريخ إلا الجــانب السياسى الــذى تمثل الغــزوات أبــرز قطعة فيه، وعلى هذا فالذى يريد أقضية وأفعال وأقـوال الرسـول فـإن عليه أن يرجع إلى كتب الحديث والفقه وليس إلى السيرة.

الفصل الخامس

الجهاد في السُنة ولدى الفقهاء

1

اعتمدنا فيما سبق من فصول فى الحديث عن الجهـاد والقتـال على القـرآن الكـريم لأننا نؤمن أنه الأصل الأصيل للإسلام ومع هـذا فنحن نـؤمن أيضـاً أن للسُـنة دوراً فى تبليغ القـرآن وتبيينه.

لقد عرضـنا رأينا فى السُـنة ومكانتها فى الشريعة فى مناسبات عديـدة للغايـة، وخصصـنا الجزء الثانى من كتاب "نحو فقه جديـد" بأسـره للسُنة.

وجملة الرأى يمكن إيجازه فى الأتى:

1. نحن نؤمن أن السُنة هى الأصل الثانى بعد القـرآن وفكـرة الاقتصـار على القـرآن الكريم دون السُنة مستبعده تمامـاً ولا يمكن التفكير فيها – فضلاً عن الأخذ بها.

2. أن فشو الوضع، والحديث بالرواية وما يلحق الأحـاديث نتيجة للسـهو أو خطأ الفهم الخ... مما أسـاء إسـاءة بالغة إلى السُـنة. لا ينفى وجـود أحـاديث تمثل فصل الخطـاب وجوامع الكلم وتشع نوراً وهدى، بل أكثر من هـذا فإننا نقـول إن السُـنة ليست إرثا خاصـاً للمسـلمين يتصـرفون فيها كما يشـاءون لأنها إرث للبشـرية كلها ما دام الرسـول رسـولاً للعـالمين وعلى المنكـرين للسُـنة أن يعرفـوا قدرهم فلا يجاوزوه.

3. مع هـذا فلابد من التنبيه إلى أن الأصل الأول هو القـرآن، والسُـنة تابعة له مقيـدة به والرسـول لا يسـتطيع أن يزيد فى القـرآن حرفاً أو ينقص حرفاً أو يبـدل حرفـاً فالسُـنة تبع للقرآن ومحكومة به.

4. تنشأ بالنسـبة للسُـنة قضـية لا تنشأ للقـرآن هى قضـية الثبـوت. لأن السُـنة لم تـدون إلا بعد مائة سـنة من الهجـرة بـأمر الخليفة عمر بن العزيز فيما قيل.. ولهذا فشا الوضع والرواية بالمعنى الخ... وقد بـذل أئمة الحديث جهوداً جبارة ونزلـوا بمئـات الألـوف من الأحاديث إلى عشرات الألوف، لكن اتسع الخـرق على الراتـق. ويـرى الفقهـاء أن ما وصل إليه المحدثون القدامى هى الغاية التى لا يمكن الإضـافة عليها فقد مـيزوا بين الأحـاديث صـحيحها وسـقيمها وأنزلـوا الـرواة منازلهم ما بين ثقات ووضاع.. الخ... وحسـما للخلاف فإننا نقـول إن القضـية ليست قضـية آحـاد أو تـواتر، حسن أو ضـعيف ولكنها أولاً وقبل كل شىء الاتفاق مع القـرآن الكـريم إذ يفـترض أن تتفق الأحـاديث معه فـإذا شذ حديث فعندئذ يكون الخيار هو ما بين القـرآن والسُنة ونحن لا نتردد فى الأخذ بالقرآن.

وقد وضعنا فى كتابنا عن السُنة أثـنى عشر معيـاراً من القـرآن الكـريم يفـترض تجاوب السُنة معها.

5. بالإضافة فنحن نـرى أن السُـنة ليس لها تأييد القرآن لأن القرآن الكريم عنـدما لم يـذكر إلا الكليـات فإنما كـان ذلك لأنه لا يريد التأبيد إلا لهذه الكليات ولو أراده للتفاصيل والجزئيـات

لـــذكرها. وعنـــدما وكل للرســـول إيضـــاح التفاصيل والجزئيـات فإنه أراد لها أن تسـتمر ما ظلت صـالحة، متوائمه مع التطـور. أما إذا جاوزها التطور فعندئذ نعود للقـرآن لنسـتلهم منه الحكم المطلوب لأن ما جـاء به الرسـول من سـنة إنما كـان عن طريقة "وحى سـنى" يختلف عن الوحى القـرآنى. ولأن الله تعـالى لم يـرد للرسـول أن يكـون مشـرعاً كاللــه، وإنما يمكن أن يضع أحكامـــــاً لابد أن تلحظ الظروف الزمانية والمكانية لها. ولا يكـون لها إطلاق أو تأبيد القرآن.

ومعلـــوم أن الفقهـــاء ذهبـــوا إلى أن جـــزءاً كبـــيراً من أحكـــام الرســـول لا تعد تشريعاً..

* * *

هـــذه هى آراؤنا فى السُـــنة. وقد تتضح وجاهتها عند مقارنة الآيـات الـتى استشـهدنا بها فى الفصـول السـابقة بالأحـاديث عن الجهـاد – سواء كان جهـاداً أو قتـالاً. ففى حين جـاءت كل الآيــات عن الأمر بــالمعروف والنهى عن المنكر مقصـورة على الأمـر. جـاء الحـديث المشـهور ليضـيف التغيـير باليـد، أو باللسـان أو بـالقلب، وعلى حين جـاءت كل الآيـات عن القتـال على أسـاس درأ الفتنة أو صد العـدوان أو الانتصـاف من الإخـــراج من الأرض الخ... وعلى عـــدم المساس "بالذين لم يخرجوكم من دياركم" فإن الأحاديث التى سترد يوحى بعضـها بالقتـال لنشر الإسلام ولحمل النـاس على الإيمـان.. حقيقة أن هناك آية أو إثنـتين لهما طـابع الإطلاق ولكن لابد أن لهما حكماً خاصاً لأن كل الآيات الأخـرى تقيد

القتـــــال بما أشـــــرنا إليه من دواعى وتجعلها دفاعية..

كما يلحظ ذلك فى إلأحـاديث عن المـرأة، فإنها تــأثرت بواقع المــرأة، وظــروف المجتمع العــربى وفى الحقيقة فـإن الأصل فى السُـنة – خاصة ما يمس قضـــايا المجتمع – هو التلاؤم مع أوضــاع المجتمــع، لا بمعــنى التســليم لهــا، لأن الإسلام جاء لتغيير وإنهـاض، ولكن أن تتم عملية التغيير والنهضة فى الأطر وبالمدى الذى تســمح به حالة المجتمع.

وفى حرية العقيــدة يكــرر القــرآن أن لا إكــراه فى الــدين، وأن لا عقوبة دنيوية على من يرتد عن دينه فى حين نص حــــــديث بطريقة حاسمة "من بدل دينه فـاقتلوه" وهو فى صـحيح البخارى.

من هنا فليس من العجيب أن يكون تركيز معظم الأحاديث عن الجهاد هى عن القتال. **لأن الأحــاديث عن المعــانى الجهادية العامة تــوزعت على مختلف أبــواب الفضــائل.** وأصبح المقصود بالجهاد هو القتال وهو تطور لم يكن منه منــاص بعد أن شــغل القتــال مســاحة كبيرة فى الحقبة المدنية.

* * *

فى ضوء هذه التحفظات نورد ما جـاء من الأحــاديث عن القتــال نقلاً عن الإمــام الشــهيد حسن البنا فى رسالته "الجهاد".

1. عن أبى هريــرة رضي الله عنه قـال سـمعت رسول الله يقول: "والذى نفسى بيـده لـولا

أن رجالاً من المؤمـنين لا تطيب أنفسـهم أن يتخلفـــوا عـــنى ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله، والذى نفسى بيده لـوددت أنى أقتل فى سـبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتـــــــل" رواه البخارى ومسلم.

السـرية: القطعة من الجيش لا يكـون فيها القائد العام.

2. عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قـال: "والـذى نفسى بيـده لا يكلم أحد فى سبيل الله والله أعلم من يكلمُ فى سـبيله إلا جاء يوم القيامة اللون لون الـدم والـريح ريح المسك".

الكلم: الجرح. ويكلم: يجرح.

3. وعن أنس رضى الله عنه قـــال: غـــاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسـول الله، غبت عن أول قتـال قـاتلت المشـركين، لئن الله أشهدنى قتال المشركين لـيرين الله ما أصـــنع. فلما كـــان يـــوم أحُد وانكشف المسـلمون، قـال: اللهم إنى أعتـذر إليك مما صـنع هـؤلاء (يعـنى أصـحابه) وأبـرأ إليك مما صـــنع هـــؤلاء (يعـــنى المشـــركين) ثم تقـــدم فاسـتقبله سـعد بن معـاذ فقـال: يا سـعد بن معـــاذ الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها من دون أحد فقال سعد فما اسـتطعت يا رسـول الله ما صـــنع. قـــال أنس: فوجـــدنا به بضـــعاً وثمـانين ضـربة بالسـيف أو طعنة بـالرمح أو رمية بســـهم، ووجـــدناه قد قتل وقد مثل به المشـــركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانـــه،

قــال أنس: كنا نــرى أو نظن أن هــذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه: ﴿مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾. إلى آخر الآية رواه البخارى.

من دون أحد: أى من جهة جبل أحد.

4. وعن أم حارثة بنت سـراقة، أنها أتت النـبى ﷺ فقالت: "يا نــبى الله ألا تحـدثنى عن حارثة – وكان قبل يوم بدر أصابه سـهم غـرب – فـإن كــان فى الجنة صــبرت وإن كــان غــير ذلك اجتهـدت عليه فى البكــاء. قــال: يا أم حارثة إنها جنــــان فى الجنـــــة، وإن أبنك أصــــاب الفردوس الأعلى" أخرجه البخارى.

السهم الغرب: الذى لا يُعرف راميه.

اجتهدت عليه فى البكاء: بكيت بكاء شديداً.

فــأنظر يا أخى كيف كــانت الجنة تنســيهم المصائب وتحملهم على الصبر عند المكاره.

5. وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" أخرجه الشيخان وأبو داود.

6. وعن زيد بن خالد الجهــنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من جهز غازيا فى سـبيل الله تعــــالى فقد غــــزا، ومن خلف غازيا فى ســبيل الله بخــير فقد غــزا" رواه البخــارى ومسلم وأبو داود والترمذى.

أى: له أجره.

7. وعن أبى هريــرة رضى الله عنه قــال: قــال رسول الله ﷺ: "من احتبس فرسـاً فى سـبيل

الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعـده، فـإن شـبعه وريه وروثه فى ميزانه يـــوم القيامـــة" رواه البخارى.

ومثل الفرس كل عدة فى سبيل الله.

8. وعن أبى هريـــــرة رضى الله عنه قيــــل: يا رسول الله ما يعدل الجهـاد فى سـبيل اللـه؟ قال: لا تسـتطيعونه، فأعـادوا عليه مـرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقـول: لا تسـتطيعونه. ثم قـال: "مثل المجاهد فى ســبيل الله كمثل الصــائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صـلاة حـتى يرجع المجاهـد" السـتة[9] إلا أبو داود.

9. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قـال: قال رسـول الله "ألا أخـبركم بخـير النـاس وشر النـاس؟ إن من خـير النـاس رجلاً عمل فى ســــــبيل الله على ظهر فرسه أو ظهر بعـيره أو على قدمه حـتى يأتيه المـوت، وإن من شر الناس رجلاً يقرأ كتـاب الله تعـالى لا يرعوى بشىء منه" رواه النسائى.

لا يرعوى: أى لا ينكف ولا يتعظ ولا ينزجر.

10. وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله يقـول" "عينـان لا تمُسهما النار: عين بكت من خشــية الله وعين باتت تحرس فى سـبيل الله تعـالى" الترمذى.

---

9 (1) كتب الحديث الستة هى: البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه والترمذى وأبو داود.

11. وعن أبى عميرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله : "لأن أقتل فى سبيل الله أحب إلى من أن يكون لى أهل المدر والوبر" أخرجه النسائى.

أهل المدر والوبر: أى أهل الحواضر والبوادى.

12. وعن راشد بن سعد رضى الله عنه عن رجل من الصحابة أن رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ فقال: "كفاه ببارقة السيوف على رأسه فتنة" أخرجه النسائى.

وهذه امتيازات الشهيد فى الموقعة، وكم له من امتيازات كهذه ستأتى بعد..

13. وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال: "ما يجد الشهيد من مسّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة" الترمذى والدارمى، وقال الترمذى حسن غريب.

14. وهذا امتياز آخر للشهيد..

15. وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله : "عجب ربنا تبارك وتعالى من رجل غزا فى سبيل الله فانهزم أصحابه، فعلم ما عليه فرجع حتى أريق دمه، فيقول الله للملائكة: انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى وشفقاً مما عندى حتى أريق دمه، أشهدكم أنى قد غفرت له".

شفقاً: خوفاً. وأريق دمه: سال دمه.

16. وعن عبد الخبير بن ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه عن جده قال: جاءت امرأة إلى رسول الله يقال لها أم خلاد وهى متنقبة تسأل عن ابن لها قتل فى سبيل الله تعالى، فقال لها بعض أصحابه. جئت تسألين عن ابنك وأنت متنقبة. فقالت: إن أرزأ ابنى فلن أرزأ حيائى. فقال لها النبى : "إن أبنك له أجر شهيدين" قالت ولم؟ قال: "لأنه قتله أهل الكتاب" أخرجهما أبو داود.

أرزأ ابنى: أفقده وأصاب فيه.

وفى هذا الحديث إشارة إلى وجوب قتال أهل الكتاب، وأن الله يضاعف أجر من قاتلهم، فليس الجهاد للمشركين فقط ولكنه لكل من لم يسلم.

17. وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه أن رسول الله قال: "من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه" أخرجه الخمسة إلا البخارى

18. وعن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله : "من أنفق نفقة فى سبيل الله تعالى كتبت له بسبعمائة ضعف" رواه الترمذى وحسنه، النسائى.

19. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: مر رجل من أصحاب رسول الله بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا

الشعب. فـذكر ذلك لرسـول الله ﷺ فقـال: "لا تفعل فإن مقام أحـدكم فى سـبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عامـاً. ألا تحبـون أن يغفر الله لكم ويـدخلكم الجنـة، أغزوا فى سبيل اللـه، من قاتل فى سـبيل الله فـــواق ناقة وجبت له الجنـــة" رواه الترمذى.

20. عيينـــة: عين صـــغيرة تفيض بالماء.

21. وعن المقــدام بن معد يكــرب قال: قال رسول الله ﷺ: "للشـهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دفعه، ويرى مقعده فى الجنة، ويجار من عـذاب القـبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خـير من الـدنيا وما فيهـا، ويـزوج اثنـتين وسـبعين زوجة من الحـــور العين، ويشـــفع فى ســبعين من أقربائه" رواه الترمذى وابن ماجه.

22. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: "من لقى الله بغـير أثر من جهـاد لقى الله وفيه ثلمـة" رواه الترمذى وابن ماجه.

23. وعن أنس رضى الله عنه قـال: قــال رســول الله ﷺ: "من طلب الشــهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه" رواه مسلم.

24. وعن عثمــان بن عفــان رضى الله عنه عن النـبى ﷺ قـال: "من رابط ليلة فى سبيل الله سبحانه وتعالى كانت كـألف ليلة صيامها وقيامها" رواه ابن ماجه.

25. وعن أبى الـــــدرداء رضى الله عنه أن رســول الله قــال: "غــزوة فى البحر مثل عشر غـزوات فى الـبر، والـذى يسـدر فى البحر كالمتشـحط فى دمه فى سبيل الله سبحانه" رواه ابن ماجه.

26. يســدر: يميل ويهـتز وتـرتج به السـفينة. وفيه الإشـارة لغـزو البحر ولفت نظر الأمة إلى وجــــــوب العناية بحفظ سـواحلها وتقوية أسـطولها، ويقـاس عليه الجو فيضـــاعف الله للغـــزاة فى الجو فى سبيله أضعافاً مضاعفة.

27. وعن جـــابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه يقـول: لما قتل عبد الله بن عمرو بن حزام يوم أحد قال رسول الله : "يا جـابر ألا أخـبرك ما قـال الله عز وجل لأبيـك؟ قلت: بلى، قـال: ما كلم الله أحـداً إلا من وراء حجاب وكلم أباك كفاحاً فقال: يا عبـــدى تمن على أعطـــك. قـــال يا رب تحييـنى فأقتل فيك ثانيـة. قـال: إنه سـبق مـنى أنهم إليها لا يرجعــون. قـــال: يا رب فأبلغ من ورائى. فأنزل الله عز وجل هـذه الآيـة: ﴿وَلا تَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُـوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَـلْ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُـونَ﴾. رواه ابن ماجه.

28. وعن أنس عن أبيه رضى الله عنهما عن النبى قال: "لأن أشيع مجاهـداً فى سبيل الله فأكففه على رحله غـدوة أو روحه أحب إلى من الـدنيا وما فيهـا" رواه ابن ماجه.

29. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "وفد الله ثلاثة: الغازى والحاج والمعتمر" رواه مسلم.

30. عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: "يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته" رواه أبو الدرداء.

31. عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا تبايعتم بالنسيئة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم" رواه أحمد وأبو داود وصححه الحاكم.

32. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: "أنطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: "قوموا إلى جنة عرضُها السموات والأرض" قال عمير بن الحمام: بخ بخ، فقال رسول الله: "ما يحملك على قولك بخ بخ" قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى إنها لحياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل" رواه مسلم.

33. عن أبى عمران قال: كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم. فخرج إليهم من المسلمين مثلهم وأكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف

الروم حتى دخل بينهم فصاح الناس وقالوا سبحان الله يلقى بيده إلى التهلكـة، فقـام أبو أيوب الأنصارى فقـال: أيها النـاس أنتم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نــزلت فينا معشر الأنصـــار لما أعز الله الإســـلام وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سـراً دون رســول الله ، إن أموالنا قد ضــاعت وإن الله تعالى أعز الإسـلام وكـثر ناصـروه فلو أقمنا فى أموالنا وأصــلحنا ما ضــاع منهــا، فأنزل الله تعالى على نبيه ما يــرد علينا ما قلنــاه ﴿وَلا تُلْقُــوا بِأَيْــدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَــةِ﴾. وكـــــانت التهلكة الإقامة على الأمـــــوال وإصلاحها وتركنا الغـزو، فما زال أبو أيـوب شاخصـاً فى سـبيل الله حـتى دفن بـأرض الروم. رواه الترمذى.

34. وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله أنه قـال: "من مـات ولم يغز ولم يحـدث به نفسه مـات على شـعبة من النفاق" رواه مسلم وأبو داود ونظائره كثيرة.

والأحاديث الشريفة فى ذلك وأمثالــه، وفى غزو البحر وتفضيله على غـزو الـبر بمـرات وفى غزو أهل الكتـاب" انتهى الاستشـهاد من رسـالة الجهاد.

وكما قلنا فإن هذه الأحاديث يجب أن توضع فى الإطار القـرآنى الواسع الـذى يقر التعدديـة، ويفـــترض وجـــود الاختلاف، ويفـــرض حمايتهٍ ورعايته على الأديان الأخرى... مما يكون ضابطاً لبعض الأحاديث وقاضيا على البعض الآخر خاصة وأن فيها ما لا يرقى لمستوى الصحيح..

ومن الخير أن نضـيف إلى ما أورده الإمـام البنا إشـارة عن توصـية الرسـول لمعـاذ بن جبل ولعلى بن أبى طـــالب وهما بمعـــنى واحد وأن اختلفت بعض الألفـاظ ففى الوصـية لمعـاذ بن جبل قال "لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبو فلا تقاتلوهم حتى يبدؤكم فإن بدءؤكم فلا تقـاتلوهم حــتى يقتلــوا منكم قــتيلاً ثم أرهم هــذا القتيل وقولـوا لهم هل إلى خـير من هـذا؟ فلأن يهـدى الله على يديك رجلاً واحـداً خـير لك مما طلعت عليه الشمس.

وفى وصيته لعلى بن أبى طالب "إذا نـزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فإن قـاتلوك فلا تقاتلهم حـتى يقتلـوا منكم قـتيلاً، فـإن قتلـوا قتيلاً فلا تقاتلهم حتى تريهم إياه فتقـول لهم هل لكم إلى أن تقولوا لا إله إلا الله ولأن يهـدى الله بك رجلاً خــــير مما طلعت عليه الشــــمس وغربت".

ويبـدو أن الإمـام على بن أبى طـالب تـأثر بهـذه الـدعوة، فهو لم يحـارب الخـوارج الـذين أسـمعوه قـوارص الكلم بل وتهـددوه بالقتل ثم انحـازوا بقضـهم وقضيضـهم إلى حـروراء، فلم يحـاربهم، بل ولم يمنعهم الفىء أو يحـرم عليهم دخول المساجد، ولم يشرع فى حرب إلا بعد أن قتلــوا بريئــاً.. وأرسل إليهم بطلب قاتله قــالوا "كلنا قتله" وعندئذ سـار إليهم ولكن قبل القتـال وعظهم فتفــــرق كثــــير منهم، ولم يبق إلا قله أصرت على القتال. وهؤلاء هم الـذين قتلـوا فى حروراء.

فلئن كان المناط فى هـذه التوصـية هو الإيمان أو الكفر، فـإن سـبب القتـال أصلاً هو سبق المشركين إلى القتل.

وأوصى الرسـول كل سـرية بـأن لا يقتلـوا الأطفال أو النساء ولا عسيفا وهو المدنى الأجير الذى يعمل لكسب عيشه. وعندما أرسل أبو بكر يزيد بن أبى سـفيان إلى الشـام أمـره "لا تقتلن امـرأة، ولا صـبياً، ولا كبـيراً هرمـاً. وأنك سـتجد قومـاً زعمـوا أنهم حبسـوا أنفسـهم فى صـوامع فدعهم وما زعموا...

2

إذا انتقلنا من السُـنة إلى الفقهـاء، فكأننا انتقلنا إلى روح العصر الـذى حكم الفقهـاء، وانتهت إليه المعـارف الإسـلامية نتيجة للاختلاط الثقـافى والجنسى والمعـرفى. ورواسب الحضـارات الفارسـية واليونانية الخ... وحـتى لا نغـرق فى الدوامة الفقهية والمذهبيـة، فإننا نجـتزى ببعض ما أورده الإمـام الشـهيد فى رسالته عن الجهاد..

1. قـال صـاحب "مجمع الأنهر فى شـرح ملتقى الأبحـر" مقـرراً أحكـام الجهـاد فى مـذهب الأحنـاف: "الجهـاد فى اللغة بـذل ما فى الوسع من القول والفعل، وفى الشـريعة قتل الكفار ونحوه من ضربهم ونهب أمـوالهم وهـدم معابـدهم وكسر أصـنامهم، والمـراد الاجتهاد فى تقوية الدين بنحو قتال الحربـيين والـذميين إذا نقضـوا والمرتـدين الـذين هم أخبث الكفـار، للنقض بعد الإقـرار والبـاغين. بدءاً منا فرض كفايـة، يعـنى يفـرض علينا أن

نبــدأهم بالقتــال بعد بلــوغ الــدعوة، وإن لم يقاتلونــا، فيجب على الإمــام أن يبعث ســرية إلى دار الحرب كل سنة مرة أو مرتين وعلى الرعية إعانته وإذا قــام به البعض ســقط عن البــاقين، فــإذا لم تقع الكفاية بـــذلك البعض وجب على الأقـــرب فــالأقرب، فــإن لم تقع الكفاية إلا بجميع النــاس فحينئذ صــار فــرض عين كالصـــلاة، أما الفريضة فلقوله تعـــالى ﴿فــاقتلوا المشــركين﴾. ولقوله عليه الصــلاة والسلام "الجهاد ماض إلى يوم القيامــة" وإن تركه الكل أثمــوا.. إلى أن قــال: فــإن غلب العــدو على بلد من بلاد الإســلام أو ناحية من نواحيها ففرض عين، فتخرج المرأة والعبد بلا إذن الــزوج والمــولى، وكــذا يخــرج الولد من غير إذن والديه، والغريم بغير إذن دائنه.

وفى كتــاب البحــر: "امــرأة مســلمة ســبيت بالشرق وجب على أهل المغرب تخليصــها ما لم تدخل حصونهم وحرزهم" أ. هـ.

2. وقــال صــاحب "بلغة الســالك لأقــرب المســالك فى مــذهب الإمــام مالــك": الجهــاد فى ســـبيل الله لإعلاء كلمة الله تعـــالى كل ســنة فــرض كفاية إذا قــام به البعض ســقط عن البــاقى، ويتعين (أى يصـــير فـــرض عين كالصلاة والصوم) بتعيين الإمام وبهجوم العدو على محلة قـــــوم، فيتعين عليهم وعلى من يقـــربهم إن عجـــزوا، ويتعين على المـــرأة والرقيق مع هـــذه الحالة ولو منعهم الـــولى والــزوج والســيد ورب الــدين إن كــان مــديناً، ويتعين أيضـــاً بالنـــذر، وللوالـــدين المنع فى فـــرض الكفاية فقـــط، وفك الأســـير من

الحربيين إن لم يكن له مـال يفك منه فـرض كفاية وإن أتى على جميع أمـوال المسـلمين. أ. هـ.

3. وفى متن المنهـــاج للإمـــام النـــووى الشافعى: كان الجهـاد فى عهد رسـول الله ﷺ فـرض كفاية وقيل عين، وأما بعـده فللكفـار حالان:

أحدهما – يكونون ببلادهم ففرض كفاية، إذا فعله من فيهم الكفاية من المســلمين ســقط الحرج عن الباقين.

والثـانى – يـدخلون بلـدة لنا فيلـزم أهلها الـدفع بـالممكن وإن أمكن تـأهب لقتـال وجب على الممكن حتى على فقير وولد ومـدين وعبد بلا إذن.

4. وفى "المغـــــنى" لأبن قدامه الحنبلى قال: مسألة – والجهاد فرض على الكفاية إذا قـام به قـوم سـقط عن البـاقين، ويتعين فى ثلاثة مواضع:

1- إذا التقى الزحفـــان وتقابل الصـــفان حرم على من حضر الانصــراف ويتعين عليه المقام.

2- إذا نـزل الكفـار ببلـدة تعين على أهله قتالهم ودفعهم.

3- إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم معه.. وأقل ما يفعل مرة كل عام[10].

---

10 **(1) اعتمدنا فى الأحاديث وأقوال الفقهاء على ما أورده الإمام الشهيد حسن البنا فى**

* * *

وهنــاك حكم للجهــاد لابن القيم أورده فى زاد المعاد وأعجب به الشهيد سـيد قطب وجعله أسـاس فكرته عن الجهـاد وأورده فى "معــالم الطريـــق" وفى الظلال وهو "نقلاً عن معــــالم الطريق".

"لخص الإمـام ابن القيم سـياق الجهـاد فى الإسلام فى "زاد المعاد" فى الفصل الذى عقده باســـم: "فصل فى تـــرتيب هديه مع الكفــــار والمنـافقين من حين بعث إلى حين لقى الله عز وجـل" أول ما أوحى به الله تبـارك وتعـالى، أن يقـرأ باسم ربه الــذى خلــق، وذلك أولى نبوتــه، فأمره أن يقرأ فى نفسه "فأنـذر" فنبـأه بقولـه: "اقرأ" وأرسله بـ: "يا أيها المـدثر"، ثم أمـره أن ينذر عشيرته الأقـربين، ثم أنـذر قومـه، ثم أنـذر من حولهم من العـرب، ثم أنـذر العـرب قاطبـة، ثم أنـذر العـالمين. فأقـام بضع عشـرة سـنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغـير قتـال ولا جزيـة، ويـؤمر بالكف والصـبر والصـفح. ثم أذن له فى الهجـرة وأذن له فى القتال. ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتلـه، ثم أمـره بقتـال المشركين حتى يكـون الـدين كله للـه.. ثم كـان الكفـار معه بعد الأمر بالجهـاد ثلاثة أقسـام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة.. فـأمر بـأن يتم لأهل العهد والصلح عهـدهم، وأن يـوفى لهم به ما اســتقاموا على العهــد، فــإن خــاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم

رسالة الجهاد – أنظر مجموعة رسائل الإمام الشهيد ص246 وما بعدها (طبع دار النشر والتوزيع الإسلامى).

بنقض العهــد، وأمر أن يقاتل من نقض عهــده.. ولما نزلت سورة بـراءة نـزلت ببيـان حكم هـذه الأقســام كلهــا: فـأمر أن يقاتل عــدوه من أهل الكتــاب حـتى يعطــوا الجزيــة. أو يــدخلوا فى الإسـلام، وأمـره فيها بجهـاد الكفـار والمنـافقين والغلظة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسـنان، والمنافقين بالحجة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهــود الكفــار ونبذ عهــودهم إليهم.. وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقســام: قســما أمــره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده، ولم يسـتقيموا لـــه، فحـــاربهم وظهر عليهم. وقســـما لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه، فـأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم. وقسـما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فـأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسـلخت قـاتلهم.. فقتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له أو عهد مطلـــق، أربعة أشــهر. وأمــره أن يتم للمــوفى بعهده عهده إلى مدتـه، فأسـلم هـؤلاء كلهم ولم يقيمـوا على كفـرهم إلى مـدتهم. وضـرب على أهل الذمة الجزية.. فاستقر أمر الكفـار معه بعد نــزول بــراءة على ثلاثة أقســام: محــاربين لــه، وأهل عهد، وأهل ذمـة.. ثم آلت حـال أهل العهد والصـــلح إلى الإســلام فصــاروا معه قســمين: محاربين وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون منه، فصـــار أهل الأرض معه ثلاثة أقســـام: مســـلم مـؤمن بـه، ومسـالم له آمن، وخـائف محـارب.. وأما ســـيرته فى المنــــافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل ســـرائرهم إلى اللـــه، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعــرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بــــــــــالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهى أن يصلى عليهم، وأن يقوم على

قبــورهم، وأخــبر أنه إن اســتغفر لهم فلن يغفر الله لهم.. فهـذه ســيرته فى أعدائه من الكفــار والمنافقين" أنتهى الاقتباس[11].

* * *

وهـذا العـرض لأقـوال الفقهـاء عن الجهـاد يوضح أنهم فهموا من الجهاد القتال وأقـاموا كل أحكـــام الجهـــاد على هـــذا الأســـاس، وانهم قد يكونـون المسـئولين بالدرجة الأولى عن إشـاعة ذلك وقد تـرتب عليه من نتـائج أشـرنا إليها فيما سـبق. وقد يكـون لهم – إلى حد وما – عـذر لأن الأحاديث أيضاً ركزت على القتال.

ومقارنة كلمات الفقهاء بما جاء فى القرآن الكريم يتضح أن هناك بوناً كبـيراً، وإن كـان لهم حق فى إبراز القداسة الكبرى والأهمية العظمى للدفاع عندما تداهم البلاد بهجمات الأعداء.

أما فيما عــدا هــذا فــالكثير يعــود إلى روح عصر الفقهــــاء.. وما لا نجد أنفســـــنا فى حاجةٍ لمناقشته، لأننا لا نرى أنفسـنا ملـزمين به أصـلاً ومناقشته تعد إهداراً للوقت الثمين.

وقد أدرك عـــدد من الفقهـــاء المعاصـــرين الخطأ الــذى وقع فيه الأســلاف بتــأثير عصــرهم وأثبت بعضهم كالشيخ محمد أبو زهـرة. والشـيخ عبد الوهاب خلاف. أن الإسلام يؤثر السـلم على الحــــرب، ولا يـــرى فى القتـــال وســـيلة لنشر الإســلام. وإنما كــان القتــال دفاعــاً عن النفس

---

11 **(1) معالم فى الطريق سيد قطب – طبعة الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية (سنة 1978) ص55.**

وحماية العقيـــــدة. كما ذهب إلى ذلك الإمـــــام الشــــهيد حسن البنــــا. ولكن أحـــداً من دعــــاة الجماعــــات الشـــــاردة لم يعُن بــــذلك ولم يشر الشهيد إلى سيد قطب إلى آراء هـؤلاء الفقهـاء، ولا حتى إلى رأى الإمـام البنا وإنما اهتمـوا بـابن القيم، وابن تيميه وابن كثــــير الخ... وهــــذا فى الحقيقة مما يضـــاعف من مســـئوليتهم ويظهر أنهم في اتجاههم هذا كـانوا يخضـعون لمـؤثرات نفسية أكثر مما هى مبررات عقيدية.

الفصل السادس
القتال فى سبيل مثل أعلى

مع أن معظم الآيــات القرآنية عن القتــال إنما تنصب على الحــرب الدفاعيــة، وأن حــروب النــبى كــانت أصــلاً حربا دفاعيــة، أو لتــأمين العقيدة أو نتيجة لنقض العهود.. إلا أن ثمة علاقة خفية بين الإسلام وبين نوع من القتــال، وجاذبية خاصة تجــذب الإســلام لفكــرة القــوة. ويمكن للإنســـان أن يستشف ذلك – استشــــفافاً من سياق بعض الآيات أو من نصوص صـريحة – وإن كــانت قليلة – كما يجـــده بكــثرة وبغـــزارة فى السُنة النبوية، وكـانت هـذه النزعة مسـئولة إلى حد كبير عن ظـاهرة الفتـوح الإسـلامية فى عهد الخلفاء الراشدين، تلك الفتوح الـتى كـونت دولة الإسـلام، والـتى حـارب فيها المسـلمون بــروح "جهادية" عالية وعمقوا فيها مبـدء كسب إحــدى الحســنيين الشــهادة أو الانتصــار وأظهــروا فيها البطولات التى يفخر بها المسلمون حتى اليوم.

فكيف نعلل هــــذا، وكيف نجمع بينه وبين حرية العقيدة؟.

يمكن القــــول إنها أثر من آثــــار الطبيعة الجهادية للإسلام عنـدما عـرض الحيـاة نـزالاً ما بين الخــــير والشــــر. هداية الأنبيــــاء وغواية الشياطين واختباراً وابتلاء بالسراء والضراء..

ويمكن أن نقـــــول إنها نتيجة لنزعة تغليب القتال على الجهاد لدى الفقهاء..

ويمكن أن نقـول إن هـذه الظـاهرة تعـرض لنا حالة معقدة ومركبة يتلاقى فيها المبدأ بالمبدأ

والمثل الأعلى بالمثل الأعلى فمبـــــــــدأ حرية الاعتقـاد هو الأصل والقاعـدة، ولكن يحـدث فى بعض الحـــالات أن يظهر مبــدأ يتطلبه التطـــور بالنســبة للظــروف الخاصة أو الآنية مثل تحقيق العـــدل فيجعل التطـــور الأولوية لمبـــدأ تحقيق العدل ومقاومة الظلم. ومع أنه قد لا يكون هناك تعـــارض، ولكن هنـــاك منـــاطق تمـــاس كما قد يســـمح بوجـــود تعـــارض مـــؤقت حـــتى تنتهى الضـــرورة الـــتى فرضـــته، وهـــذه كلها ظـــواهر يفرضها فرضاً التعقيد الاجتماعى.

بالإضـــافة إلى تلاقى المبـــادئ، فيغلب أن يقــترن هــذا بتلاقى المجتمعــات. فيظهر مجتمع شاب فيه كل عناصر القــوة والحيوية والفعاليــة، أشــبه بحصــان جـامح يريد أن ينطلق بينما تظهر بجانبه مجتمعات شائخة، طبقية، تقليدية، فقـدت حيويتها منذ عهد بعيــد. فى هـــذه الحالة يكـــون طبيعيــاً أن ينــدفع المجتمع الجديد بكل حيويتــه، ليكتسح المجتمع الهــــرم القـــــديم المتهـــــاوى بالفعــل.. لتنتصر المبــادئ الجديــدة ومجتمعاتها الجديـــــدة على المبـــــادئ القديمة ومجتمعاتها الشائخة.

وعندما يحدث هذا فيمكن أن نقول إن هــذا الصراع ما بين مجتمعـات شـابة قوية لها مبـادئ سـليمة مع مجتمعـات شـائخة قديمة لها مبـادئ باليه هو ما يطلقون عليه "صراع الحضارات".

والـــذى حـــدث أن المجتمع البشـــرى قبل ظهور الرسـالة المحمدية كـان يتخبط فى إسـار حضارات طبقية جـائرة تسـودها الجهالة والوثنية وقد كان أبرز طابع لهذه المجتمعات – الفارسية الرومانية – هو اسـتعباد الجمـاهير والتحكم فيها

إما بـتزييف الرسـالات إلسـماوية السـابقة الـتى جـاءت لتحريرهـا، أو بتأليه الملـوك والحكـام أو بفرض الإصر والأغلال على الجمـاهير المحرومة بحيث عجـزت هــذه الجمــاهير عن أن تحــرر نفسـها، وأصـبح من الضـرورى أن يـأتى التحرير من السماء رأسـاً فى صـورة رسـول يـدعو لأن تحل شـرعة المسـاواة محل شـرعه الطبقيــة، شرعة الشورى محل شـرعة الاسـتبداد، شـرعة العدالة محل شـرعة الظلم، شـرعة العلم محل شـرعة الجهـل.. وأهم من هـذا كله شـرعة الله محل شـرعة الطـاغوت، لأنه فى هـذه الصـيغة **"الله لا الطاغوت"** تتبلور رسالة الإسلام.

لم يكن إلا العرب فى هذا الـوقت ليقومـوا بهـذه الرسـالة ولم يكن إلا الإسـلام لتتمثل فيه هـذه الرسـالة.. وكـان لابد من تقـويض أسس وهيكل النظـام الجـائر الفاسد الـذى يسـتعبد الناس وإحلال نظام العدالة.. والشورى.

وقد أرسل الرسـول خطاباته المشـهورة إلى كسرى وقيصر ورفضـها هـذان بأبـاء وشـمم فلم يكن من الممكن أن يتم هـذا إلا بـالحرب.. والقتال..

وهكذا ظهر "الجهاد فى سبيل الله".

والجهـاد فى سـبيل الله قتـال فى سبيل مثل أعلى يستهدف أمرين:

الأول: إحلال نظـام اجتمـاعى واقتصـادى وسياسى صـالح محل نظـام اقتصـادى وسياسى واجتماعى فاسـد.. وهـذا ما يتم بإسـقاط النظم الفاسدة وإحلال نظم جديدة تقـوم على العـدل، والمنهجية وحكم القانون "أو كما يسميه الإسلام

– الشرع" وأن يكون النـاس أمـام الفـرص وفى المعاملة كأسـنان المشـط، ولا فـرق بين غـنى وفقــير، نبيل وعــامى، عجمى وعــربى أســود وأبيض، ولم تكن الجيوش الإسلامية لتحارب فى الجنود أمامها كفاراً، ولكن حماة النظـام الفاسد والقوة التى تعمل على بقائه وتحـول دون إحلال العدل الذى جاء به الإسلام.

والشق الثانى: التبشـير بـدعوة وعقيـدة الإسلام، وهذا أمر لا يمكن إلـزام الأفـراد بـه، أو فرضه عليهم، ويجوز لكل واحد أن يرفضـه، وأن يتمتع – فى ظل الحكم الإســـلامى والعـــدل الإســـلامى – بكافة حرياته الدينية – لقـــاء دفع ضريبة إضافية هى الجزية.

ذلك لأن الغرض الرئيسى من الجهاد فى الإسلام ليس هو حمل الناس قسـراً على الإيمان بالإسـلام، لأنه لو كـان ذلك لما سمح ببقـاء كل من يشـاء الاحتفـاظ بدينه ولما حما الكنــــائس، ولما أعطى القسيسين والرهبان نوعاً من الحصانة.

ولكن الجهاد الإسلامى اسـتهدف فى هـذا الشق التعريف بالإسلام وإعلام النـاس أن هنـاك ديناً ونظاماً اسـمه الإسـلام يقـوم على قواعـده الخاصة الخ...

ولم يكن هذا ميسـراً فى العهـود القديمـة، خاصة بعد رفض الملــوك رســائل النــبى – إلا بظهور الجيش الإسلامى والحكم الإسـلامى دون أن يتضمن هذا بالضرورة مساساً قسـرياً بحرية الاعتقاد. ولكن تطبيقاً لغرض أوجبه القرآن على

المسلمين عندما جعلهم دعـاة حضـارة "لتكونـوا شهداء على الناس".

وقد يرى البعض أن الضريبة الإضافية الـتى فرضت على الــذين آثــروا الاحتفــاظ بــدينهم، ورفضـوا الإيمـان بالإسـلام تمثل ضـغطا يخـالف حرية الاعتقـــاد، ولكن الأمر فى حقيقة الحـــال عكس ذلـــك. إذ هى البـــديل الوحيد عن جعل هـــؤلاء النـــاس ينخرطـــون فى خدمة الحكومة الإسلامية الـتى لا يؤمنـون بهـا، ولولاها لجـاز أن يؤخــذوا ليكونــوا جنــوداً فى الجيش الإســلامى وعندئذ يلزمون الدفاع عن عقيدة لا يؤمنون بها. فالجزيــة هنا تمثل ســبيلاً للاحتفــاظ بالعقيــدة وبديلاً عن القسر الذى لم يكن منه مناص نتيجة للتعقيد الاجتمـــاعى وهى ليست ثمنا للحريـــة، ولكنها ثمن العدالة والحمايـــة، وكـــانت هـــذه الصفقة رابحة للذين آثروا الاحتفاظ بدينهم أكـثر مما كـــانت رابحة للمســـلمين. وقد ســـعد بها أصــحابها على حســاب المجتمع الإســلامى إلى درجة ســـــاعدت – فيما بعد – على ظهــــــور "الامتيازات" الأجنبية، وظهور مجتمعات منفصلة وشبه مستقلة داخل المجتمع الإسلامى.

وقد كان نظام الجزية من النظم المقــررة. وقد دفع المســيح نفسه الجزيــة، وكـانت لــدى الرومان وغيرهم ثقيلة وباهظة.

وفى الحقيقة، فإنه لم يكون هناك حل لهذه المعادلة الصعبة سـوى ذلـك، وقد نجد مـثيلاً لها فى حالة رفض بعض العمـــال الانضـــمام إلى النقابــة، مع تمتعهم فى الــوقت نفســه، بالمزايا التى تكتســبها النقابة وتسـرى على كل العمـال، فى هــذه الحالة يفــرض على العمــال الــذين لا

يريدون الانضمام إلى النقابة دفع "رسم انتفـاع" ويسـمى هـذا النظـام **Agency Shop** والجزية الإسلامية هى بدل الانتفاع هذا..

وقد كـان الجهـاد الإسـلامى الأول بكافة المعـايير، وعلى امتـداد العصـور، مما لا يمكن للمـؤرخ النزيه إلا أن يعـترف أنه كـان فتحـاً إنسانيا وشـعبيا لم يحـدث مثله من قبل أو بعـد، وتجربة ثمينة فى تاريخ البشرية بأسـرها.. ودليلاً لا يدحض ولا يقاوم على قـوة العقيـدة والإيمـان والمثل الأعلى ففى أى تاريخ يمكن أن نجد مثيلا لهـذه الجيـوش الـتى خـرجت بأسـلحة سـاذجة، ودون أى تـدريب عسـكرى سـابق، لتكتسح الجيـوش المدربـة، والقيـادات المحترفـة، والإمبراطوريات العريقـة.. فى أى تـاريخ نجد مثيلا لهؤلاء الجنود الـذين يشـرون الحيـاة الـدنيا بـالآخرة ولا يعـادل شـجاعة نفوسـهم إلا عفة سيوفهم، ويحملـون الكتـاب والمـيزان ويقيمـون الصـلاة. أين من هـؤلاء الجيـوش الرومانية الـتى كان يسير فى أعقابهـا.. البغايـا، وتجـار الرقيـق، وتجـارب بفكـرة اسـتباحة المـدن، وانتهـاك الأعـراض والسـيطرة والحكم.. أين الفتح الإسلامى الرحيم من الاكتساح الرومانى الغشيم الـذى كـان دأب العـالم وقتئذ وأورثته روما القديمة أوربا الحديثة.

كـان الفتح الإسـلامى حيـاة وعدالة ونـوراً وعهداً جديداً للشـعوب والجمـاهير، المسـتعبدة، كـان أشـبه بدفعه قوية من القيم والمعنويـات و "الهرمونات" تدفقت فى عروق هـذه الجمـاهير، فأحيتها، وأحيت معها سوريا، والعراق ومصر بعد

أن كان الاستبداد الرومانى قد أماتها، وأعطتها فرصتها لتكون قوى مؤثرة فى تاريخ البشرية.

لقد كان من الممكن أن يتكرر هذا بالنسبة للشعوب الأوربية، وكان من الممكن أن ينتشر نور الإسلام ويبدد ظلمات الجهالة الأوربية لو لم ينحسر الفتح الإسلامى عند "بواتيه" الأمر الذى جعل المؤرخ البريطانى الأشهر "جيبون" يرى فى هذا الانحسار، وانتصار شارل مارتل على عبد الرحمن الغافقى كارثة أصابت أوربا.. وأخرت تقدمها.

مع هذا – أو بمعنى أصح لهذا – فنحن نقول إن تجربة الفتوح الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين كانت تجربة فريدة، شأنها شأن "دولة المدينة" لا يمكن أن تتكرر ولا يمكن القياس عليها. وقد كانت هزيمة الجيش الإسلامى عند بواتيه دليلاً على أن التجربة فقدت جدتها ومبرراتها لأن الهزيمة جاءت لحرص البربر الذين كانوا أغلبية الجيش على الغنائم التى أثقلوا أنفسهم بها طوال فتحهم، فدل ذلك على أنهم فقدوا طبيعة الجنود الإسلاميين الذين "يعفون عند المغنم" وأنهم أصبحوا جيوشاً عادية كبقية الجيوش التى تحارب عصبية وطاعة، أو احترافاً واغتناماً الخ...

ولم يعد هذا الأسلوب – أسلوب الحرب فى سبيل مثل أعلاً – متاحاً الآن لأن هناك بدائل عديدة للتعريف بالمثل الأعلى لم تكن متاحة فى العهد القديم كالصحافة والإذاعة والقنوات التليفزيونية المفتوحة على العالم أجمع. ولأن تجربة التاريخ أثبتت أنه ليس المهم

الفتح العسكرى بالجيوش ولكن غرس القيم الإسلامية. **ولو أن المسلمين عندما فتحوا أسبانيا وفتحوا الهند مارسوا أساليب الإسلام الحقه فى الحكم، أو حتى بذلوا جهداً حقيقياً لغرس الإسلام نفسه فى هذه البلاد لكانت شبه القارة الهندية أمة إسلامية** ولكانت أسبانيا دولة إسلامية، ولكن الملوك والأباطرة والقادة فى الهند – أباطرة المغول عكفوا على اللذات والشهوات وأنفقوا أموال الشعب على قصورهم الخ... كما شغل المسلمون فى أسبانيا بحرب بعضهم بعض، وقل مثل ذلك سلاطين الترك ومماليك مصر والكياسره الصفويين الذين جعلوا شغلهم حرب بعضهم بعضاً، وكلهم مسلمون وحكموا البلاد فأكثروا فيها الفساد ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**(13)** إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾. {14 الفجر}.

أضاع الحكام المسلمون بابتعادهم عن مُثل الإسلام الهند وأسبانيا. وكان نهر الفولجا فى أعماق روسيا يوماً ما نهراً إسلامياً، كما كان اللوار فى عمق فرنسا كذلك. ولكن المسلمين أضاعوا هذا كله. فلنأمل أن يتعلموا الدرس حتى لا تتكرر فى المستقبل تلك الأخطاء الفاحشة التى أودت بالماضى، لأنه وإن كان المسلمون قد خسروا القوة العسكرية، فلا يزال لديهم القرآن ولو بشروا به (وليس بكلام فقهائهم) لفتحوا به ما خسروه بالسيوف. فليس المهم الفتح، ولكن الفهم...

الفصل السابع
الحلم المستحيل
الجهاد لإنقاذ البشرية من عبادة العباد إلى عبادة الله

تحدث الإمام الشـهيد حسن البنا رحمه الله عن مقاصد القتال فى الإسلام فأجملها فى:

1. رد العــدوان والــدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين.
2. تـأمين حرية الـدين والاعتقـاد للمؤمـنين الـذين يحـاول الكـافرون أن يفتنـوهم عن دينهم
3. حماية الدعوة حتى تبلغ إلى الناس جميعاً ويتحدد موقفهم منها.
4. تأديب ناكثى العهد.
5. إغاثة المظلومين من المؤمنين[12].

وقد أورد الإمــام الشــهيد هــذا فى كتاباته الأخـيرة الـتى كـان يحررها فى مجلة الشـهاب سـنتى 47 و48 أى أنها تمثل آخر الأقـوال لديه حـتى وإن لاحظنا أنها عاصـرت الأيـام العصـيبة،

---

[12] **(1) جاء ذلك فى مقال بمجلة الشهاب العددين الرابع والخامس فبراير – مارس سنة 1948 ويمكن الرجوع إليها فى رسالة السلام فى الإسلام وبحوث أخرى. التى أجملنا فيها كتابات الإمام الشهيد فى مجلة الشهاب ونشرناها تحت هذا الاسم. وقد أعيد نشرها بعد ذلك متفرقة.**

أيـام جهـاد متطـوعى الإخـوان المسـلمين فى فلسطين.

ولكن التطـورات السياسـية المأسـاوية والعنيفة خاصة حـرب عبد الناصر على الإخـوان المسـلمين، ومأسـاة التعـذيب أدت إلى ظهـور رأى آخر فى الجهـاد، كجـزء من نظرية فى الـدعوة الإسـلامية أمن بها الـذين اصـطلوا بنـار هذه العداوات وتعرضـوا للتعـذيب، وكـانت هـذه النظرية تتفق مع الظـروف الشـاذة الـتى مـرت بها الدعوة الإسـلامية من ناحيـة، وتخبط التجربة الناصـرية المشـئومة من ناحية أخـرى ووجـدت داعيتها فى الكاتب الموهوب الأستاذ سيد قطب الـذى صـاغها فى كتـاب "معـالم على الطريـق" فى سطور ملتهبة تنضح بالإيمان وبكل ما يوجده الإيمان من تأكيد وثقة[13].

ولم تنتبه السـلطات المسـئولة لخطـورة "معـالم الطريـق" ولهـذا نشر الكتـاب أكـثر من مـرة ووجد فرصـته كاملة لكى يسـتوعبه فريق من الشـباب المـؤمن، خاصة ممن كـان فى الإخوان المسلمين ثم ضـاق بما اعتـبروه سـلبية أو استخذاءً أمام الطغيان الناصرى وشيئاً فشيئاً ظهرت دعوة يكون الجهاد فيها هو قطب الرحا، سـواء كـان على الصـعيد الـداخلى، أو على الدولى.. وفى الحقيقة فإن ما يميز هذه الـدعوة ويعطيها طابعها العـام والأممى هى أن هـدفها الأسـمى هو تخليص البشـرية من عبـادة العبـاد إلى عبادة الله.

---

13 **(1) لقد شرحنا ملابسات ذلك بإفاضة فى كتابنا "رسالة إلى الدعوات المعاصرة" دار الفكر الإسلامى الصفحات 99 – 106.**

ويعرف المؤرخـون أن كلمة تخليص النـاس من عبادة العباد إلى عبـادة الله إنما جـاءت أول مـرة على لسـان ربعى بن عـامر القائد العـربى فى لقائه مع القائد الفارسى رســـــــتم قبيل القادســـية ومن ثم اســتحوذت عليها الـــدعوة الجديـــــدة وجعلتها مماثلة لكلمتها الأخـــــرى "الحاكمية الإلهية" التى كان أول من قال بها فى التـاريخ الإسـلامى هم الخـوارج وجـابهوا بها عليا بن أبى طالب..

بعث هـــؤلاء الـــدعاة الجـــدد من التـــاريخ الإسلامى هذه الشواهد دون أن يدرسوا معانيها، والملابسات التى أعلنت فيها والنهاية التى أنتهى إليها الأخذ بها.

وحمل ســـيد قطب رحمه الله وعفا عنـــه، على الذين يـذهبون إلى أن الجهـاد فى الإسـلام له طـــابع دفـــاعى وأطلق عليهم "المهـــزومين" وذهب إلى أنهم فى اتجـــاههم هـــذا يســـايرون المستشرقين الذين يكيدون للإسلام.

وأخص انتقاداته لهـــؤلاء "المهـــزومين أنهم بألفاظـــه". [يخلطـــون ما بين منهج الإســـلام فى اســتنكار الإكـراه فى الـدين ومنهجه فى تحطيم القوى السياسية المادية التى تحـول بين النـاس وبينـه، والـتى تعبد النـاس للنـاس، وتمنعهم من العبودية للـــه.. وهما أمـــران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما.. ومن أجل هـذا التخليـط، وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة! – يحـاولون أن يحصـروا الجهـاد فيما يسـمونه اليـوم: "الحـرب الدفاعيـــة".. والجهـــاد فى الإســـلام أمر آخر لا علاقة له بحروب النـاس اليـوم، ولا بواعثهـا، ولا تكييفها كـذلك.. إن بـواعث الجهـاد فى الإسـلام

ينبغى تلمسـها فى طبيعة "الإسـلام" ذاته ودوره فى هذه الأرض، وأهدافه العليا التى قررها اللـه، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرســالة، وجعله خــاتم النبــيين وجعلها خاتمة الرسالات.

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير "الإنسـان" فى "الأرض" من العبودية للعباد – ومن العبودية لهــواه أيضا وهى من العبودية للعبــاد – وذلك بــإعلان ألوهية الله وحــده ســبحانه – وربوبيته للعـالمين. إن إعلان ربوبية الله وحـده للعـالمين معناها: الثـورة الشـاملة على حاكمية البشر فى كل صــورها وإشــكالها وأنظمتها وأوضــاعها، والتمرد الكامل على كل وضع فى أرجاء الأرض، الحكم فيه للبشر بصورة من الصـور.. أو بتعبـير آخر مـرادف: الألوهية فيه للبشر فى صـورة من الصور.. ذلك أن الحكم الذى مـرد الأمر فيه إلى البشـر، ومصـدر السـلطات فيه هم البشـر، هو تأليه للبشر، يجعل بعضهم لبعض أربابـاً من دون الله. إن هـذا الإعلان معنـاه انـتزاع سـلطان الله المغتصب ورده إلى الله، وطرد المغتصـبين لـه، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسـهم، فيقومون منهم مقام الأرباب ويقوم الناس منهم مكـان العبيـد.. إن معنـاه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله فى الأرض، أو بـــــالتعبير القرآنى الكريم:

- ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾.
- ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِـكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.

- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

وقيام مملكة الله فى الأرض، وإزالة مملكة البشر، وانتزاع السلطان من أيدى مغتصبيه من العباد ورده إلى الله وحده.. وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية.. كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان، لأن المتسلطين على رقاب العباد، والمغتصبين لسلطان الله فى الأرض، لا يسلمون فى سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان، وإلا فما كان أيسر عمل الرسل فى إقرار دين الله على الأرض! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال] انتهى[14].

الجهاد هنا فى رأى سيد قطب رحمه الله هو الوسيلة فى يد المسلمين ليدافعوا عن حق الله الذى اغتصبته النظم وحق العباد الذى حرموا من عبودية الله وأجبروا على عبودية البشر. وهذا فيما يرى لا يدخل فيه إكراه !

هذا خيال طامح، بل هو حلم فيه ما فى أضغاث الأحلام من هذيان وخلط وشذوذ واستحالات.. ولقد كان ممكنا من أكثر من ألف عام عندما كانت الحدود بين الدول مغلقة، والأمية سائدة ولا توجد أجهزة ووسائل إعلام

---

14 **(1) معالم فى الطريق – سيد قطب ص 59-60 طبعة الاتحاد العالمى للمنظمات الطلابية سنة 1978 م.**

وعنـــدما كـــانت النظم طبقية بالفعل تســـتغل الجماهير، نقول لقد جوزنا الفتوح الإسـلامية فى هـذه الظـروف بالـذات ومع هنا فإنها بعد نجاحها فى صـــدر الإســـلام وتحـــول الخلافة إلى مُلك عضوض فقدت الفتـوح الإسـلامية معظم عناصر الإيمان التى قامت عليها، أما الآن فـإن أى فـرد فى أى دولة يريد أن يعتنق الإسلام فـإن دولته لا تتدخل، وهـذا جـوهر الحرية ويـدخل المئـات من الأوربـيين والأمريكـيين الإسـلام دون حاجة إلى جيش الجهـاد الإســلامى. والنظم الـــتى ينعتها الشـهيد سـيد قطب بألفـاظ الكفر والاسـتبداد الخ... أقرب إلى روح الإسلام وحريته وسـماحته من الدول الإسـلامية، ومما يـدعو إليه هو وليس إلا إكراها مقيتا فى مجال الـدين الـذى قـال الله تعالى عنه "لا إكراه فى الدين"، وما أشـبهه وهو يرفع دعوة الحاكمية الإلهية بأعراب تميم الجفاه الـذين لا يعقلـون شـيئاً ولا يعلمـون ويتصـايحون "الحكم لله !" وكانت نتيجة صـيحتهم المشـئومة تلك قتل على بن أبى طالب وإنهاء الخلافة وبدء إلمُلك العضوض. ومع هذا يرى شاعرهم المغفل أن قاتل علىٍ بن أبى طـــالب "أوفى البرية عند الله ميزاناً !!".

ظهرت ناشئة جديـدة جعلتها ظروفها مهيئة لتقبل فكر سـيد قطب رحمه اللــه. وأخـذوا فى تكوين هيئات عديدة تحت أسـماء مختلفة أبرزها الجماعة الإسـلامية والجهـاد تتفق على اختلافها فى الإيمان بالفكرة الـتى عرضـها الشـهيد سـيد قطب عن الجهاد..

وقد نشـــرت الجماعة الإســـلامية ميثـــاق العمل الإســــلامى وحمل أســـــماء عاصم عبد

الماجد، وعصام الدين درباله، وناجح إبراهيم عبد الله. وهو كالآتى:

[**غايتنا:** رضا الله تعــالى بتجريد الإخلاص له سبحانه وتحقيق المتابعة لنبيه صلى الله عليه وسلم.

عقيـدتنا: عقيـدة السـلف الصـالح جملة وتفصيلاً.

فهمنـا: نفهم الإسـلام بشـموله كما فهمه علماء الأمة الثقات المتبعون لسُنة النبى وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين رضى الله عنهم.

هدفنا:

* تعبيد الناس لربهم.

*إقامة خلافة على نهج النبوة.

طريقنا: الدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهـــاد فى ســـبيل الله من خلال جماعة منضـبطة حركتها بالشـرع الحـنيف تـأبى المداهنة أو الركــون وتســتوعب ما ســبقها من تجارب.

زادنا: تقـوى وعلم.. يقين وتوكـل.. شـكر وصبر.. زهد فى الدنيا وإيثار للآخرة.

ولاؤنا: لله ولرسوله وللمؤمنين.

عداؤنا: للظالمين.

اجتماعنا: لغاية واحـدة.. بعقيـدة واحـدة.. تحت راية وحدة فكرية واحدة] انتهى..

إننا نجد دعوة جادة مخلصة حافلة بالمعانى النبيلة المؤثرة وتتمحـور حـول أن تكـون للحيـاة

غاية ومغزى وترتبط بالإسلام ولها طــابع أخلاقى ملــتزم. وهى مثل كل دعــوة إســلامية تسـتلهم الإسـلام وتجعل ولاءها لله ولرسـوله وللمؤمـنين وعداءها للظالمين..

مثل هذه الرسـالة فى الحقبة الـتى سـادت فيها الانهزاميـــة، والانتهازية وســقطت الفنـــون والآداب وأصبح المسـرح كباريه وشـجعت الدولة الإسـفاف والشـهوات لتشـغل النـاس وارتفعت الـــدعايات اليســـارية بعد أن شــغل اليســـاريون منـابر الإعلام. فى هـذا الجو الوبيل تبـدو رسـالة "الجماعة الإسلامية" مرفأ سلام وأمـان لسـفينة الشباب الضائع، التائه المتخبط بين الأمواج.

ولكن وآسفاه...

إن فهم الجماعة الإسلامية لمضمون الجهاد يطمس الكلمـــــات البريئة الـــــتى أجملت فيها عقيـدتها وغايتهـا، بل إن هـذا المضـمون يسـخر عقيـــدتها وفكرتها الخ... لفكــــره مســـيطرة، مستحوزه، متحكمة تؤدى إلى طاغوت وكـابوس وتحسب أنها تحقق تحريـــراً وإنقـــاذاً وتقـــذف بالناس إلى الظلمات بدلاً من أن تنقذهم منها.

لقد جعلت الجماعة الإســــــلامية الآية ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَـةٌ وَيَكُـونَ الـدِّينُ كُلُّهُ لله﴾.. شـعاراً لها وقد شـرحنا هـذه الآية مـراراً وتكراراً عندما عرضنا لها فى بـاب آيـات القتـال فى القرآن الكريم من هذه الرسالة.

ولكن الجماعة الإسـلامية فهمت شـيئاً آخر لأن الجماعة تـــرى أن الإســـلام بألفاظها [جـــاء ليدخل الخلق كلهم فى دين الله تعالى وشرعه

قُــلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُــولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾.

وجـاء أيضـاً ليمحو الشـرك فى كل صـوره من فـوق ظهر الأرض "حـتى يعبد الله وحـده لا شريك له" كما قال صلى الله عليه وسلم..

نعم كان القتال دعـوة للتوحيد بنص حـديث رسـول الله ﷺ "أمــرت أن أقاتل النــاس حــتى يشــهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمــداً رســول الله".

كـــــــان القتــــــال دعـــــــوة للتوحيد لأن الإمبراطوريات والممالك أبت بسلطانها ونفوذها أن تســمح لــدعوة التوحيد ودعاته بالنفــاذ إلى أرض الله وخلق الله بحجة أن هـذه أرضـها هى، وهؤلاء رعاياها.. فكان لابد من القتال.

وكـان القتـال سـحقا للشـرك بإزالة هـذه الطــواغيت الــتى علت تلك المجتمعــات حاكمة آمـرة ناهيـة، تشـرع للنـاس وتحمل النـاس على التحاكم لشرعتها وتجـبرهم على الخضـوع لهـا.. رغبة ورهبة..

كان لابد من القتال لإزالة كل سـلطان يعبد من دون الله.. لإزالة كل سـلطان يقف فى وجه دعوة الإسلام.. لإزالة كل سلطان يأبى أن يدخل فى دين الله ويستكبر ويـرفض أن يـذعن ويـدفع الجزية، ويصر على أن يعلو ويهيمن.

كان لابد من القتال لإزالة الفتنـة.. وسـحق الشــرك.. وإعلاء شــرع الله ﴿وَقَــاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾..

إن أحد لم يخلق من دون اللــه.. وإن أحــداً لم يخلق مع الله.. لذا فإنه ليس من حق أحد أن يشـــرع من دون اللـــه.. وليس من حق أحد أن يشــرع مع اللــه. قــال ابن تيميه "ليس لأحد أن يحكم بين أحد من خلق اللـه، لا بين المسـلمين، ولا الكفار.. إلا بحكم الله ورسوله"..

إن الناس لم يخلقـوا أنفسـهم، ولم يخلقـوا الأرض الـــتى عليها يحيـــون وعليها تقـــوم مجتمعاتهم، لذا فإنه ليس من حقهم أن يهيمنــوا أو يهيمن بعضهم ليشرع ويحكم ويأمر وينهى من دون الله..

إننا كمسـلمين – مـأمورون أن لا نــدع أى طائفة على وجه الأرض تحكم الناس بغير شــرع الله..

فمن أبى ذلك ورفض الإذعان قاتلناه..

يقولـون: هـذه وصـاية منكم على البشـرية !!.. نقـول: هـذه وصـاية شـرع الله ودينه على أرض الله وخلقه، نحن مأمورون بتحقيقها لصالح البشرية بوصفنا خير أمة أخرجت للناس.

إن الإسـلام ليس مجـرد عقيـدة فى القلب فقط حـتى نقنع بحكايتها باللسـان والـدفاع عنها بـالقلم والبرهـان ثم نمضى قـائلين: ﴿فَمَنْ شَـاءَ فَلْيُـؤْمِنْ وَمَنْ شَـاءَ فَلْيَكْفُـرْ﴾. لا هـذا فهم أعـوج مبتـور.. إن الإسـلام منهج حيـاة، إنه شـرع الله الـذى جـاء ليسـير حيـاة الخلـق.. لـذا فنحن لا نكتفى بخطبة أو موعظة نقــول فيها "عقيــدتنا" ونـــدافع عنها وكفى.. كما أنا لا نقنع بحلقة علم نعُلم فيها أو نتعلم بعض المناسك والشـــــعائر وكفى.. بل لابد وأن ننطلق بهــذا الــدين دعــوة

باللســان، وحجة بالبيــان، ودعــوة بالحســنى، وجهاداً بالسيف.. أما اللسان والبيـان والحسـنى فللقلوب والعقول، فـإن آمنت فيها ونعمت، وإن أبت فالجزية والصغار وعلو أحكام الإسـلام على الـديار، فـإن امتنعت واسـتكبرت وعانـدت ولم تسلم لنا القيـاد فالسـيف السـيف.. حـتى تـنزاح هـذه الطــواغيت، وبعد ذلك نقــول ﴿فَمَنْ شَــاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾..] انتهى.

* * *

بعد ثلاثين عاماً من الاحتباس فى السجون، والعـذاب، وبعد أن استشـرت أفعـال فريق من الجماعــات الإسـلامية وذهب بها التطــرف كل مذهب وأسفرت أعمـالهم عن شر النتـائج، وبعد أن قتلوا السادات وهو الذى أعلن حـرب أكتـوبر تحت لواء "الله أكـبر" وأغلق المعتقلات وصـفى الحراســـات وحـــاول أن يقضى على رواسب الناصرية المقيتة...

بعد أن تخبطوا ثلاثين سنة، وأخذوا المجتمع المصرى فى ذيل تخبطاتهم تبينوا أنهم كانوا فى ضلال عميق..

وجاءت مبادرة ترك العنف..

[ففى الخامس من يوليو سنة 1997 وأثناء نظر القضية العسكرية 235 فـوجئ الحاضـرون بأحد الإخوة المتهمين فى هذه القضية وهو يقف فى مواجهة رجـــال الإعلام ليلقى بيانا مـــذيلاً بتوقيع القادة التاريخيين للجماعة الإسلامية يدعو الإخوة لإيقاف العمليات القتالية وحقن الدماء.

كـانت هـذه المفاجـأة – كما يقـال – كمن ألقى حجـراً فى مـاء راكد سـرعان ما تتـابعت

تداعياتــه.. حيث ســارع البعض لينكر ويشــكك ويتهم.. ووقف البعض الآخر يـــرقب عن كثب ما تسـفر عنه الأيـام محجما أن يبـدى رأيا بتأييد أو معارضة.. بينما سارع الأكثرون يؤيدون ويباركون ويشـجعون لعل هـذه المبـادرة الشـجاعة تكـون مدخلا لانتشال البلاد من حمام الدم الذى عــانت منه لسنوات مضت.

ورغم أن هـذه المبـادرة كـانت من طـرف واحد ولم تبد أجهـزة الدولة أى تجـاوب معها إلا أنها أشاعت جوا من التفاؤل بإنهـاء تلك الأزمـة، وتوقع الكثـــــيرون أن يتجـــــاوب معها الجميع مستقبلاً.

وقد زاد من هذا الإحساس بالتفاؤل أن بادر شــيخنا الــدكتور عمر عبد الــرحمن من محبسه فى أمريكا – فك الله أسره – ليدعم هـذا التوجه ويدعو الإخوة جميعا للتجاوب معه.

أما إخواننا فى الخـــارج فقد أعلنـــوا عـــدم اسـتجابتهم لهـذه المبـادرة مشـككين فى صـحة نسـبتها إلينـا.. وكـانت صـعوبة الاتصـال بهم من سجننا حائلاً أعاقنا كثـيرا عن شـرح وجهه نظرنا فى هـذا الأمر وإن كنا فى ذلك الـوقت على ثقة بـــأن الأمر ســـوف ينتهى باســـتجابتهم فى آخر الأمر.

وفى غمــرة ســعينا فى البحث عن ســبيل لشــرح وجهة نظرنا لإخواننا مع تتـابع تــداعيات هذه المبـادرة على الـرأى العـام وأجهـزة الدولة فوجئنا بحادث الأقصر.

وكانت صـدمة لنا جميعـا.. إذ كـان الحـادث بما فيه من اعتـــداء على النســـاء والأطفــــال

والتمثيل بهم غريبــاً على منهجنا وتفكيرنا وكــان صدى هذا الحادث متفاوتا.

فقد أعلنا تمســكنا بمبادرتنا رغم تســرب شىء من الإحباط إلى نفوسنا.. فى الوقت الذى أحـدث صـداه فى نفـوس إخواننا بالخـارج وبـدأ تأييـدهم فـرادى يتـوالى حـتى أعلنـوا بجملتهم بيانهم فى 28 مارس سنة 1999 بالتأييد الكامل ووقف كل العمليـات تمامـاً والبيانـات المحرضة عليها.

وهكــذا تحــولت المبــادرة إلى رأس جسر يحتشد من خلفه كل أبنـاء الجماعـة، وكلهم أمل فى أن ينفضـــوا عن أكتـــافهم أثر تلك الأيـــام العصيبة ليعودوا إلى مهمتهم الأصلية كـدعاة إلى الله يشاركون فى هداية الخلائق إلى طريق الله القويم. وها هى سـنوات أربع تمر على المبـادرة ولا زلنا نشعر بالراحة ونحن نرى شجرة مبادرتنا تتنامى على مهل[15].] انتهى..

إن هذه المبـادرة الـتى فيما نـرى لم تظهر نتيجة استسلام للعذاب أو اتفـاق مع السـلطات. وإنما ظهرت لأنه استبان لهـؤلاء الـدعاة خطأ ما ذهبـــوا إليه أولاً بعد أن درســـوا دراسة متأنية الاجتهادات الشرعية فى مجال الجهاد، والثــورة،

---

15 **(1) كتاب مبادرة وقف العنف – رؤية واقعية ونظرة شرعية تأليف إسامة إبراهيم حافظ، عاصم عبد الماجد، وأقره وراجعة كرم محمد زهدى، وعلى محمد الشريف، وناجح إبراهيم عبد الله ومحمد عصام دربالة، وفؤاد محمود الدواليبى وحمدى عبد الرحمن عبد العظيم.**

والعنــف، وانتهــوا من منطق شــرعى، وبحكم الأدلـة. **إلى أن الجهاد وسـيلة وليس غاية وإن الغاية هى هداية النـاس إلى الحـق" وأن هـــذا لا يتم بالجهـــاد ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة.**

ولا جـدال أنهم أصـابوا هـذه المـرة بعد أن أخطـــاوا فى المـــرة الأولى. ولكننا نلحظ أنهم قصـروا فكـرهم فى الحـالين – فى البداية وفى النهاية – على فهم فقهــاء ومفســرين للآيــات والأحـــاديث وليست هـــذه هى الطريقة المثلى لأنها وإن ســمحت لهم بالتصــحيح، فإنها لا تنفى وجـود وجهـات نظر لفقهـاء آخـرين، بل ولنفس الفقهاء الذين اعتمـدوا عليهم وهـذا ما يمكن أن يضل جماعـات جديـدة، وكـان يجب أن يحكمـوا العقل والمنطق وطبـائع الأمــور وما يــوحى به القـــرآن – كل القـــرآن – وما أخذ به الرســـول بالفعل إن هذا وحـده هو الـذى يعصـمهم من أن يقعوا فى أخطاء جديدة. إن فقه السلف الصالح لا يمكن أن يحسم الموضــوع فقد ينقـــذهم فى ناحية ويوقعهم من ناحية أخرى.

وليس هـــذا مجـــــرد نقد لموقف الجماعة الإسلامية أنه تصحيح المفـاهيم. إن الـذين أرادوا استنقاذ البشـرية من جاهلية تعبيد العبـاد للعبـاد إلى تعبيدهم لله، وآمنـوا بضـرورة إعلان الجهـاد على كل النظم الأخـــرى اخطـــأوا خطأ جـــذريا أساسياً. فى الوسيلة وفى الغاية فـإنهم اعتـبروا الجهاد، والقوة والسلاح هى وسيلة تـدمير النظم الحاكمة التى رأوا أنها تحول دون أن تكون كلمة الله هى العليا فى حين أن القـــــرآن الكــــــريم اســتبعد القــوة نهائيــاً من مجــال الهدايــة. ولم

يســـتخدم الســـيف إلا درءً أو حماية لعـــرض أو مُلـــك، أو عقيـــدة وقد أرسل الرسـول إلى الملــوك خطابــات يــدعوهم، ولم يرسل إليهم جيوشاً تحاربهم، والفتوح الإسـلامية هى ظـاهرة تاريخية وليست أصـلاً عقيـديا، شـأنها فى ذلك شأن "دولة المدينـة" الـتى كـانت بـدورها ثمـرة لتطـــورات عملية وواقعية ولم تكن تحقيقـــاً لمقتضـــيات العقيـــدة ولكن نتيجة لتطـــورات تاريخية أدت لظهورها وقد قلنا فى إحـــــدى المناســـبات إن دولة المدينة تجربة فريـــدة لا تتكرر ومن هنا يكون القيـاس عليها خطـأ، وهـذا ما يمكن أن يقال على الفتوحـات الإسـلامية فى الصدر الأول للإسلام.

وقد تحــدثنا عن الفتوحــات الإســلامية من قبل لهذا فإن إقحام السـيف فى مجـال الهداية خطأً وانحـــــراف عما أراده الله وعما مارسه الرسول.

وأما فى الغاية فإنهم أرادوا حمل "البشرية قاطبة على الهدايــة" وفيم هم من هــذا ولو أراد الله تعالى هذا لغـيرَّ فى السـنن والمبـادئ الـتى يقـــوم عليها المجتمع الإنســـانى بحيث يمكن تحقيق هذا. ولكنه تعـالى أراد هـذا الاختلاف أراد هذه التعددية. ولام الرسول لحزنه وبخعه لنفسه أن لم يــؤمن به المشــركون، وقــال له بصــريح العبـارة.. ﴿وَإِنْ كَـانَ كَبُـرَ عَلَيْـكَ إِعْرَاضُـهُمْ فَـإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَـوْ شَـاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾. {35 الأنعام}..

﴿تِلْـكَ أُمَّةٌ قَـدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَـبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْـأَلُونَ عَمَّا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ﴾. {134 البقرة}..

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِـهِ فَقَـدْ اهْتَـدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِـقَاقٍ فَسَـيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. {137 البقرة}..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــــوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَــــكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَـلَّ إِذَا اهْتَـدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَـرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُــــــــونَ﴾. {105 المائدة}..

﴿وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُــؤْمِنِينَ﴾. {99 يونس}..

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(1) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُـدُونَ(2) وَلا أَنْتُمْ عَابِــدُونَ مَا أَعْبُــدُ(3) وَلا أَنَا عَابِــدٌ مَا عَبَدتُّمْ(4) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُـدُ(5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. {6 الكافرون}..

فهذه آيـات صـادعة فى أن الله تعـالى أراد التعدديــــــة، وأراد أن يوجد الاختلاف، وأن ليس على المؤمــنين هداية هــؤلاء ولا يضر المؤمــنين من ضل إذا اهتدوا. وهناك لـوم وتقريع لمن يريد أن يجعل النــاس كلهم مؤمــنين، ولو شــاء الله لجعل الناس أمه واحدة الخ...

فى ضــوء هــذه الآيــات الصــريحة القوية الصادعة يكون الجهاد "لإنقـاذ البشـرية من تعبيد العبـاد إلى تعبيـدها للــه" افتياتـاً على المشـيئة الإلهية وإعلاء لفهمهم الخــاص عليهــا. ويغلب دائمــاً أن يكمن فى أعمق أعمــاق من ينــادون بمثل هــذه الخطــوة عــرق يــنزع للســلطة

والديكتاتورية وإعلاء الذات وهو الشر المستطير الـــــذى أوتيت منه النظم السياســــــية فى المجتمعات الإسلامية..

ومن ناحية مقابلة فـإن الله تعـالى يوصـينا أن نتعامل مع كل الـذين آمنـوا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَـالِحًا فَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. {69 المائدة}

﴿إِن الَّذِينَ آمَنُـوا وَالَّذِينَ هَـادُوا وَالصَّـابِئِينَ وَالنَّصَـارَى وَالْمَجُـوسَ وَالَّذِينَ أَشْـرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ شَهِيدٌ﴾. {17 الحج}..

لقد جمعت هـــذه الآية كل شــرعه مما قد يراها من لا يـــؤمن بها ضـــالة، أو نحلة كـــافرة، وتركت أمرها لله..

﴿لا يَنْهَـاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَـاتِلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ أَنْ تَبَـرُّوهُمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِـطِينَ﴾. {8 الممتحنة}..

والأتكى والأســـوأ أن كل هــــذه الحماسة والإيمان والتأكد يدور حـول تعبـير بقـدر ما يبـدو صحيحاً فى ظاهرة بقدر ما يكون خطيراً وهداماً إذا أريد تحقيقه بغــــير ما رســــمه الله وطبقه الرسول.

إن هذه المأساة ليست جديدة على التاريخ الإسلامى لقد كـان هى الأولى الـتى فتحت بـاب الفتن والضلال وأدت إلى الحروب وسفك الدماء وأودت بعهد الإمام على وجاءت بمُلك بمعاوية

وقد تملك الغضب الإمـام على، وهو يسـمع تصايح هؤلاء الأعراب الجفاة لا حكم إلا لله.. بعد أن جـازت عليهم خدعة المصـاحف على أسـنة الرماح.. فـأمر بـدعوة الصـحابة وجـاء بمصـحف إمـام كبـير وجعل يخبط عليه ويقـول يا مصـحف حدثهم.. ليوضح لهم حماقة هـؤلاء الأغبيـاء. فـإن القرآن الكريم لن يتحـدث ولن ينطـق، وأن الله تعالى لن يـنزل ملائكة يحكمـون. وإنما سـيتولى الأمر هـؤلاء الحمقى وليس لـديهم أى فهم أو فكـر، ولا فى حـديثهم إشـارة إلى عقل أو إلى عدل أو مصلحة. فبماذا يحكم هـؤلاء إلا بالجهالة وإلى أى شىء تؤدى الجهالة إلا إلى الفشل.

إلى هـذا الجحيم كـان دعـاة الحاكمية يسوقون الجماهير ويتصورون أنه بقدر ما يشـتد الصـراخ والصـياح وتتعـالى الأصـوات والهتافـات بقدر ما يكونون أدنى إلى تحقيق الآمال.

الخـوف كل الخـوف إن لا يكـون دعـاة الحاكمية الإلهية اسـتبانوا تمامـاً مـدى الغفلة والحماقة والاستغلال للشعارات، فيما ذهبوا إليه لأن تجربة التـاريخ توضح لنا إن الأمم فى سـاعات محنتها تمر بها مثل هـذه النوبـات من الجنـون. حـتى وإن انقشـعت بعد حين أهـدرت خلاله الوقت والجهد والدم والمال...

خاتمة

الجهاد الإسلامى المطلوب اليوم
الجهاد ضد التخلف
جهاد "الحياة فى سبيل الله"

قد يكــون من حق الشــاعر جميل بثينة أن يقول:

يقولون جاهد يا جميل بغزوة

وأى جهــاد غيرهن أريـــد

كما قد يكــون من حق جماعة الجهــاد أن ترى أن الجهاد على طريقة غزوات الرسـول هو "الفريضة الغائبة"..

من حق هـؤلاء وأولئـك، ومن حق غـيرهم أيضـاً أن يقولـوا ما يشـاءوا. ولكن هـذا لا يغـير الحقيقة التى تفرض نفسـها فرضا على الجميـع. تلك هى أن العالم الإسلامى بأسره اليوم هو فى الــدرك الأدنى بمــوازين القــوة: قــوة البــأس العســكرية: قــوة المــال الاقتصــادية. قــوة المؤسسـات الراسـخة والنظم المسـتقرة. وان أهله أصبحوا قطيعـاً من الجيـاع العـراة.. الـذين غلبت عليهم الذله والمســـــكنة وتحكمت فيهم عصـابات من الحكـام الطغـاة. وأن الشـعوب لا تملك ثقافــة، ولا حريــة، ولا تنظيمــاً تمكنها من العمـل. وأصـبحت تتخبط فى المتاهـات دون أن تصل إلى حلول..

هــذه هى الحقيقة المفجعــة، فــإذا كـان هنـاك حـديث عن جهـاد فـأولى ثم أولى أن يكـون جهـاداً فى مواجهة هـذا الواقع المـزرى وهـذه الحـال الـتى هى أبعد ما يكون عما أراده الله تعالى عندما قال ولله العزة ولرسوله والمؤمنين

فـــإن المؤمـــنين لم يعد لهم أى نـــوع من العــزة. وإنما أصــبحوا يتخبطــون ما بين الأغلال المفروضة لا يهربــون من غل إلا ليقعــوا فى غل آخر. ولا ينجون من قيد إلا ليلاحقهم قيد ثان.

العـــالم الإســـلامى يتخبط ما بين حكـــام استبدت بهم شهوة السلطة وارتبطوا باتفاقيـات ومعاهـدات مع الـدول الكـبرى الـتى ترسم لهم سياساتهم ويتلقون لقـاء ذلك المناصـرة والتأييد من هــذه القــوى والســكوت عما يقترفونه من مظالم وموبقات..

وترسم هذه القوى للعالم الإسلامى طريقاً تـــدعى أنه ينهض بشـــعوبها، ولكنه فى الحقيقة يربط هذه الشعوب بإسار التبعية للدول الكـبرى بحيث يكونـــون مواطــــنين درجة ثانية أو ثالثة يمارسون الأعمـال اليدوية الـتى لا تتطلب ذكـاءً ويتـأثرون بأسـوء مكونـات الثقافة الحديثة الـتى تجعلهم أسرى الاستهلاك والعاجزين فى الــوقت نفسه عن الإنتاج. ثم لا تكتفى هذه الدول بذلك، بل تقيد العـالم الإسـلامى بقـروض ربوية تجعله يعجز عن سداد الدين الذى يتضخم، وبالكاد يدفع فوائــده. ويــرتهن اقتصــاد البلاد وزبــدة الإنتــاج لتسـديد هـذه الفوائـد. وقد يقـدمون "معونـات" والحقيقة أنها معونـــــات لهم وليس للعـــــالم الإســـلامى لأن كل معونة تصــطحب بشـــروط

وقيـــود وإجـــراءات وضـــمانات وعـــدد من المستشارين الأجانب أو تشترط سلعاً معينة قد تكــون راكــدة فى دولتها وتريد التخلص منهـــا، وتشــترط أن تتم عمليــات التبــادل الصــناعى والتجـارى على سـفنها أو بطرقهـا. وفي النهاية فــإن نتيجة المعونة توظيف عــدد من الأجــانب، ورشوة عدد من المســئولين والتخلص من بعض سـلعها الراكـدة وتشـغيل سـفنها ونظمها الخ... فهى كسب للدولة "المانحة" على حساب الدول المتلقية !.

وداخل كل دولـــة، فى وزارتهـــا، خـــبراء وموظفــون يعكفــون على إتمــام هــذه الخطط ويضـعون ترتيباتها ويكتبـون التقـارير ويعتمـدون على أرقـــام وإحصـــائيات مزيفة أو توقعـــات خيالية.. وعندما تكذبهم الوقائع فـإنهم يتمحكـون وأن كـــانوا فى النهاية يعمـــدون إلى المزيد من القروض ويبخسون عملتهم حتى لا تساوى شـيئاً أمام الدولار.

وهؤلاء هم خبراء التنمية وأساتذة الإقتصاد، وقد حكم عليهم الوضع بهذا الموقـف، وأصـبحوا أدوات لــه. وهم يصــدرون التقرير تلو التقريــر، ويعتمــدون على نســيان الشــعوب، وتصــديقها ورضوخها وانصـياعها فى النهاية لأنها لا تسـتطيع العمل، ولا تهتدى للحل.

وبفضل هــذا يعيش الحكــام فى قصــورهم، ويعيش "التكنـــــــوقراط" فى فيلاتهم. ويكسب المسـتوردون والتجـار الملايين وتنحط يومـاً بعد يــوم مســتوى المعيشة بصــورة تدريجية تصــبح مفزعة فى النهايـــة، وأن لم تظهر كـــذلك فى البداية..

إن هذه الوسائل التى تعتمد على سياسات الحكام وعلى تقارير الفنـيين والاقتصـاديين ومن ورائهم التجار الجشعون والرأسـمالية الطفيليـة، وسياسات صندوق النقد الـدولى.. وفتح الأبـواب للسـلع المسـتوردة الـتى تـودى بكل صـناعة وزراعة لا يمكن أبداً أبـداً أن تحقق نهضة ولا أن تحفظ لشعب كرامته وعزته واستقلاله..

لا يمكن الإنقـاذ إلا عنـدما تعتـبر الجمـاهير عملية التنميـة، عمليتها وتأخذها من أيدى الخبراء والتكنـوقراط. وهذا لا يتحقق إلا بإيمان عظيم بأن هـذا هو الجهـاد الحق الـذى أراده الإسـلام وعندئذ تتحـول التنمية إلى معركة حضـارية، شـعبية، إسـلامية تـؤدى تحت لـواء الجهـاد المقـدس. تبـدأ من نقطة العدالة الـتى لا تتطلب إلا الإجـراءات الإدارية لتحقيق التقـارب فى الـدخول والثروات حـتى تصل إلى مرحلة الكفاية التى تنهض بالإنتـاج بحيث يـتيح مسـتوى المعيشة المطلوب لكل الشعب..

إن إرادة الشـعوب وحـدها هى الـتى يمكن أن تصمد، وأن تنتصر، على هذا الطوفان، عندما تنتظم وتعـبئ نفسـها فى جهـاد مقـدس وتحت راية قيمة عظمى كالإسلام.

أن هذا الجهاد هو وحـده الـذى يسـتطيع أن ينهض من الحاضر المـتردى المعقـد، ويجابه التحدى الكاسح للعولمة.

أن الجهـاد اليـوم ليس هو أن نمـوت فى سبيل الله. ولكن أن نحيا فى سبيل الله.

كـــان الجهـــاد الإســـلامى الأول فى عهد الرســـول والخلفـــاء الراشـــدين موجها "ضد الكســـروية والقيصـــرية والنظم الطبقية الـــتى اسـتعبدت الجمـاهير. وكـان الجهـاد فى القـرن الماضى لاســتعادة الحرية السياســية والقضــاء على الاستعمار البغيض، واليـوم فـإن الجهـاد هو ســبيل تحرير البلاد والشــعوب من قبضة التبعية الاقتصادية، والتخلف ومواجهة العولمة...

كـــان شـــعار الجهـــاد قـــديماً "من يبـايعنى على المـوت فى سـبيل اللـه" واليوم فـإن شـعار الجهـاد "من يبـايعنى للحياة فى سبيل الله"..